استرابون في مصر

نقله من اليونانية

دكتور وهيب كامل

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية
١٩٥٣

استرابون في مصر

القرن الأول قبل الميلاد

نقله من اليونانية

دكتور وهيب كامل

مكتبة أ.د. عبد العزيز صالح
رقم التسلسل ٣٠٥
رقم التصنيف ٩٣٢

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية
١٩٥٣

مقدمة

استرابون

٦٤ ق.م – ١٩ ب.م

– ١ –

سيرته

لقد خلف استرابون كتاباً فى الجغرافية لا قرين له فى العالم القديم ، وذاع ذكره وعرف فضله فى القرون الوسطى حتى سمّى بالجغرافى ، كما يسمىَّ هوميروس بالشاعر .

ومع ذلك فقد صمت المؤرخون الأقدمون عن ذكره صمتاً مريباً ، فإنا لا نقع عندهم إلا على النذر اليسير من الاشارات العابرة إلى حياته وكتابه . أما مرجعنا فيما نطلب من أخباره فتلك الاشارات المتناثرة فى طيَّات كتابه « الجغرافية » فبه نلوذ لنقف على نسبه ولنهتدى إلى سيرته ومؤلفاته .

يقول استرابون فى معرض حديثه عن مدينة كنوسوس من أعمال أقريطش[1] أن دوريلاوس المكنى بالقائد — وهو أول

(١) ١٠ ، ٤

من يذكر من أجداده لأمه ـ كان أحد ضباط ميثريداتيس[1] يورجيتيس ملك پونتوس على البحر الأسود وقد أنفذه مراراً إلى تراقيا وبلاد اليونان ليجمع له الجنود المرتزقة . ولم يكن الرومان حتى ذلك الحين قد أنشبوا أظافرهم فى جزيرة أقريطش ، واتفق أن رسا دوريلاوس فى كنوسوس عند ما نشبت الحرب بينها وبين منافستها اللدود جورتينا ، فرشحته كفاءته لتولى منصب القيادة فى الجيش الكنوسى ، وكانت خططه وأساليبه فى الحرب سبباً فيما أحرزته كنوسوس من نصر باهر على عدوها . فما لبث القائد أن أصبح محل تكريم وتشريف واعزاز بين المنتصرين . وفى هذه الآونة اغتيل يورجيتيس فى عاصمته سينوب ، وأبرزت وصيته التى تجعل من أرملته لاوديكى وابنيه يوپاتور وخريستوس خلفاءه . ولم يكن دوريلاوس ليرجو الخير على يدى الأرملة المحنكة أو الابنين الصغيرين ، وكان لا يزال منتشياً بخمر النصر مزدهيا بما لاقى من تكريم وتشريف، فآثر أن يستقر بين أهل كنوسوس ويتخذها وطناً ، فتزوج إحـــدى بناتها

(١) ميثريداتيس الخامس كان مشايعاً للرومان حريصاً على توسيع رقعة مملكته ، عاونهم فى حربهم ضد قرطاجنة ١٤٩ ـــ ١٤٦ ق . م وضد پرجاموس ١٣٢ ـــ ١٢٩ وكوفىء بمقاطعة فريجيا . واغتيل سنة ١٢٠ ق . م وقيل إن زوجه كانت ضالعة مع المتآمرين .

وأنجب بنتاً وابنين هما لاجيتاس وستراتوخاس ، وقد كان ستراتوخاس هذا عجوزاً فانياً عند ما رآه استرابون .

وبعد اغتيال ميثريداتيس يورجيتيس خلفه ابنه ميثريداتيس السادس المسمى يوپاتور الأكبر، وكان لايزال فى الحادية عشرة من عمره، وكان من أترابه فى نشأته الأولى صبى يدعى دوريلاوس وهو ابن فيليتيروس أخى دوريلاوس القائد . فما أن تربع يوپاتور على العرش بعد سبع سنوات قضاها مشرداً طريداً حتى انعطف لتربه الذى نشأ معه، وأغدق عليه آيات التكريم والتشريف ، فعينه كاهناً أعظم للإلهه « ما »[1] وكان صاحب هذا المنصب يلى الملك مباشرة فى النفوذ والسلطان . ولم يكتف الملك الشاب بهذا المظهر من مظاهر الكرم والأريحية نحو صديقه وصفيه ، بل شاء أن يفيض نعمه وآلاءه على سائر أفراد عائلته ، وكان دوريلاوس القائد قد مات ، فاستدعى ابنيه لاجيتاس وستراتوخاس إبنى عم صديقه ، وقد بلغا الآن أشدهما ليكونا فى حاشيته ، ويقول استرابون « إن ابنة لاجيتاس كانت أم أمى » .

وطالما كان الحظ مبتسما لدوريلاوس كان لاجيتاس وستراتوخاس فى بحبوحة من العيش ، ولكن الطمع زيَّن لدوريلاوس أن يخون الملك الذى اصطفاه بعطفه ورعايته .

(١) إلاهة الحرب فى پونتوس ، وهى تقابل عند الرومان بللونا .

وقد كان الرومان وعملاؤهم وقد دوّخهم ميثريداتيس لا يألون جهداً فى إثارة النفوس والخواطر عليه، والتلويح لبطانته بأجزل المنح إن هم خرجوا عليه . ولم يكن الملك غافياً عن كل هذا، فما أن تسول لأوريلاوس نفسه أن يسلم مقاليد الجيش للرومان طمعاً فى السلطان تحت ظلهم ، حتى يُقبض عليه ويُطاح برأسه . وهنا يسدل التاريخ ستاراً سميكا على هؤلاء أجمعين إذ لم يشأ استرابون أن يروى لنا من نبأ هذين الشابين إلا أنهما انحدرا مع دوريلاوس الخائن إلى درك سحيق من الغمر [1] .

إن أسلاف استرابون الذين أتينا على ذكرهم كانوا من اليونان . ولكن استرابون لم يكن خالص الأرومة اليونانية ، فإن الدم الأسيوى كان يجرى فى عروقه ، فعندما ضم ميثريداتيس إقليم كولخيس إلى ملكه ، رأى أنه من الفطنة أن يسند مناصب الحكم فى الولاية الجديدة إلى أخلص موظفيه إليه وأكثرهم ولاء له . وكان أحد من أسندت إليهم المناصب فى الولاية الجديدة موافرنيس عم أم استرابون [2] . ولم يبلغ موافرنيس هذا المنصب إلا قرب أفول نجم ميثرايداتيس فشارك مليكه فى سوء مصيره . ولم يكن هذا المصير حتما على أفراد عائلة استرابون

---

(١) ١٠ ، ٤

(٢) ١١ ، ٢

كلهم ، فقد رأى بعضهم ما كاد يحيق بميثريداتيس من أخطار ، وما يوشك أن يتردى فيه من تهلكة ، فتجنبوا هذه العاصفة السياسية الجائحة ، وكان أحد هؤلاء الحصفاء أينياتيس جد استرابون لأبيه . فما أن رأى دولة ميثريداتيس توشك أن تدول وتتهاوى على عروشها ، وقد كان يكن الضغن للملك لأنه قتل ابن أخته تيبيوس كما قتل ابنه ثيوفيلوس ، حتى عقد العزم على أن يثأر لنفسه ولهذين الشقيين ، فسلم خمسة عشر معقلا لقائد الرومان لوكوللوس الذى وعده بالخير الجزيل لقاء هذه الخيانة .

وفى هذه الآونة نجحت مساعى پومپيوس ، وخلف لوكوللوس على أدارة دفة الحرب ضد ميثريداتيس . وكان يكره لوكوللوس ويكره كل من أدوا له من الخدمات ماهيأ له ما أحرز من نصر ، واعتبر هؤلاء أعداءً له . ولم يقف عداؤه لاينياتيس عند حد اضطهاده فى آسيا الصغرى ، بل إنه عندما رجع إلى روما مظفراً منع مجلس الشيوخ من منح آيات التكريم التى كان لوكوللوس قد وعد بها بعض رجال مملكة پونتوس ممن ضلعوا معه ، بحجة أن الغنائم وآيات التكريم لا توزع بناءً على توصية لوكوللوس ، بل بناءً على توصيته هو القائد المنتصر . وهكذا فوّت على اينياتيس جد استرابون جزاء خيانته (١) .

(١) ١٢ ، ٣

وثمة دليـــل آخر على سريان الدم الأسيوى فى عروق استرابون، ذلك هو اسم أقريبه تيبيوس . فاسترابون نفسه يقول[1] إن الآثينيين كانوا يطلقون على أرقائهم أسماء الشعوب التى جلبوا منها أو الأسماء الغالبة فى هذه الشعوب، فإذا كان العبد من پافلاجونيا سمَّاه الآثينيون تيبيوس .

يخيَّل الينا إذن أن استرابون كان من سلالة مختلطة ، من يونانيين وأسيويين ، ولـكنه كان يونانياً قحاً لغة وتعليما وثقافة .

ولد استرابون فى مدينة أماسيا[2] فى پونتوس سنة ٦٤ أو ٦٣ ق. م. وأغلب الظن أن عائلته، وقد تقلبت فى نعيم الملوك، قد جمعت ثروة طائلة ، أتاحت له أن يفرغ للبحث والدرس والاستقصاء ، وأن يبعد فى رحلاته فى عصر كانت الرحلة فيه باهظة النفقات . وقد تعددت جوانب تعليمه وإن ظل يونانى الصبغة ، فقد تلقى العلم وهو يافع على أرسطوديموس فى نيسا بالقرب من تراليس فى كاريا فى آسيا الصغرى[3] . ويرى

---

(١) ٧، ٢

(٢) فى قلب وادى نهر ايريس وتسمى الآن إيشكيل إرماك وقد وصفها استرابون ١٢، ٣

(٣) ١٤، ١

البعض فى هذه الواقعة مايشير إلى هجرة عائلة استرابون من أماسيا إلى نيسا عند ماتحزمت الأمور بفوز پومبيوس عدو العائلة اللدود . وقد يكون لهذه الواقعة تعليل آخر . فعسى أن يكون استرابون قد بُعث إلى نيسا للدرس قبل هزيمة ميثريداتيس، ولم يكن ليقع الاختيار على نيسا لتكون مركز تحصيله لو لم يكن له فيها قريب يرعاه فى هذه السن المبكرة . فمن عسى أن يكون هذا القريب ؟ إن ميثريداتيس عندما أصدر أمره المشئوم بقتل كل المواطنين الرومانيين والإيطاليين فى آسيا سنة ٨٨ ق . م . قد عهد أهل تراليس إلى ثيوفيلوس بالإشراف على تنفيذ هذا الأمر . وبعد ردح من الزمان انقلب الملك على ثيوفيلوس وأمر بقتـــله ، فهل كان ثيوفيلوس قريباً لاسترابون ؟ وهل كان قتله أحد الأسباب التى حدت بأينياتيس جد استرابون إلى خيانته والميل إلى جانب لوكوللوس القائد الرومانى ؟ ولكنا نوشك أن نوغل فى متاهات من الافتراض والتوهم .

لقد يمم استرابون شطر روما فى صدر شبابه ، لأنه قابل فيها القائد پوبليوس سرفيوس المكنى بايساوريكوس ، الذى مات سنة ٤٤ ق م . وإذن فقد كان استرابون فى روما ولما يجاوز العشرين من عمره . فما كان غرضه من هذه الزيارة ؟ إنه ليذكر

فى معرض حديثه عن أميسوس [١] إنه تلقى العلم على تيرانيون وإنا لنعلم أن لوكوللوس قد أسر تيرانيون سنة ٧١ ق. م وساقه إلى روما سنة ٦٦ ق. م. فأقام فيها مدرساً. فإذا كان استرأبون قد درس عليه، فلابد أنه كان من عداد تلاميذه فى روما، ويحدثنا شيشرون الخطيب فى رسالة إلى صديقه أتيكوس [٢] أن تيرانيون كان جغرافياً ضليعاً. فهل هو الذى جنح باسترابون نحو الدراسات الجغرافية، وأقنعه بأنها دراسة مكملة لدراسة التاريخ والسياسة ؟

وكان استرابون يدرس الفلسفة المشائية جنباً إلى جنب مع الفيلسوف الصيداوى بويثوس [٣]، وهو يقرر أن الفيلسوف المشائى كسينارخوس كان قد هجر موطنه سلوقية، وعاش فى الاسكندرية وآثينا وروما وكان يدرّس فيها جميعاً [٤]، فهل سعد استرابون بحضور محاضرات كسينارخوس؟

ويحدثنا أثينايوس بأن استرابون كان على صلة بالفيلسوف

---

(١) ١٢، ٣.
(٢) ٢، ٦.
(٣) ١٦، ٢ وقد درس بويثوس على كل من أندرونيكوس وكسينارخوس، أصبح بعد موت أندرونيكوس زعيم المدرسة المشائية فى آثينا.
(٤) ١٤، ٥.

الرواقى پوزيدونيوس مستشهداً على صحة قوله بعبارة يقتبسها من الجزء السابع من كتاب «الجغرافية»[1].

لقد كان جل أساتذة استرابون من المشائين، ولكنه لم يسر فى ركابهم بل انحرف إلى الرواقية مخلصاً لها، متشبثاً بها، فهو يشهد صراحة بأنه رواقى[2]، ويتحدث عن زينو (٣٣٥—٢٦٣ق.م) مؤسس المدرسة الرواقية بقوله «فيلسوفنا زينو»[3] ويقول «ذلك أنه توجد فى رسائل پوزيدونيوس أبحاث طويلة فى العلل، وكثير من التقليد لأرسطو، وهذا هو بالذات ما تتجنبه مدرستنا لخفاء العلل»[4] فما الذى جنح به عن المدرسة المشائية إلى المدرسة الرواقية؟ هل يرجع هذا التحول إلى تأثير پوزيدونيوس أم إلى تأثير صديقه الفيلسوف الرواقى أثينودوروس الذى كان ذا نفوذ قوى فى روما إذ كان معلماً وصديقاً لأغسطس؟ إن استرابون كان مزهواً بصداقته، فهو يقول فى معرض الحديث عن مدينة بترا (الرقيم) انها محكومة على أفضل وجه «وإن صديقى أثينودوروس

---

(١) مائدة الحكماء ١٤، ٧٥ ويظهر أن أثينايوس يخلط بين شخصين لأنه يقول إن پوزيدونيوس كان صديقاً لاسكيبيو الذى دمر قرطاجنة.

(٢) ٧، ٣

(٣) ١، ٢

(٤) ٢، ٣

الفيلسوف قد تحدث إلىّ بهذه الحقيقة »(١) ولعل هذا التحول كان من وحي نفسه ، فقد نشأ كما رأينا فى بيئة سياسية مضطربة أشد الاضطراب وأعنفه ، معرضة للحرب الجائحة بين الحين والحين ، فلا أمن لأصحابها ولا استقرار ، فلا غرو أن يرى فى بسط نفوذ روما على ربوع المعمورة إيذاناً بفجر عهد جديد من السلام والإخاء ، ولا غرو أن يرى فى النظرية الرواقية فى المواطن العالمى بديلا حميداً من النزعات القومية المتأججة والنعرات الجنسية العارمة التى كادت تفسد على الناس حياتهم ، فانعطف إليها وأخذ بها مؤمناً بصلاحها وعاملا على نشرها بين الناس .

وموقف استرابون من الدين الشعبى واضح صريح ، فهو يقرر أنه مع ضرورته لكبح جماح العامة لا يليق بالعلماء الراسخين « ذلك أنه فى التعامل مع جمهور من النسوة أو مع خليط من الرعاع ، لايستطيع الفيلسوف أن يؤثر فيهم بالحجة ، أو يحثهم على الولاء والتقوى ، فالحاجة إذن ماسة إلى الخوف الدينى وهذا لايمكن إثارته إلا بالأساطير والمعجزات »(٢).

ومع ذلك فلم تخل مبادىء استرابون من عقيدة دينية . فمع كل ما يزعمه من خفاء العلل(٣) ، كان يؤمن بأن « العناية »

---

(١) ١٦ ، ٤

(٢) ١ ، ٢

(٣) ١٧ ، ٤٦

هى العلة الأولى . وهو يعرض العقيدة الرواقية فى المطابقة أو التوافق مع الطبيعة فى حديثه عن نظام الأنهار فى فرنسا [1] ، ويعود إليها ثانية فى حديثه عن مصر [2] .

لقد نشأ استرابون ونجم الرومان بازغ ، وسلطانهم ممتد ، وجحافل جيوشهم مظفرة ، فأشرب الاحترام العميق لهم وهو لم يأل جهداً فى إظهار إعجابه بعظمتهم الحربية ، وسياستهم الحكيمة وإدارتهم الحازمة ، وإن توزع السلطان فى مسقط رأسه وما أدى إليه من قلقلة واضطراب ، قد أقنعه بضرورة الأخذ بنظام السلطة المطلقة والمركزية الإدارية . فهو يقول « إن براعة الحكومة وأباطرة الرومان قد صانت إيطاليا — التى كثيراً ما مزقتها الحرب الأهلية منذ صارت خاضعة لروما — وروما نفسها عن التردى فى مهاوى الضلال والفوضى . وقد يكون من المعتذر على الرومان أن يحكموا هذه الامبراطورية المتسعة بأى طريق آخر غير إيكال أمرها إلى شخص واحد ، كما لو كان أباً . والمحقق أن الرومان وحلفاءهم لم يتمتعوا فى أى فترة من الفترات بمثل هذا السلام الشامل والرخاء العام ، الذى هيأه لهم الامبراطور أغسطس منذ ألبس ثوب

(١) ١٤ ، ١
(٢) ١٧ ، ٣٦

السلطة المطلقة . وهذا السلام لا يزال طيبريوس ابنه وخليفته يتيحه لهم فى الوقت الحاضر لأنه يتخذ من أغسطس أنموذجاً له فى السياسة والادارة »[١] .

وهو آخذ أبداً بوجهة النظر الرومانية . وقد فاق أستاذه پوليبيوس فى الحرص على الدفاع عنهم والذود عن سمعتهم . ففى سرده لخبر استيلاء الرومان على كورنثة يذكر أن پوليبيوس قد ريع لما رأى من فرط احتقار الجند الرومان لروائع الفنون ، « لأن پوليبيوس قد رأى بعينيه اللوحات الفنية مطروحة على الأرض ، والجند يلعبون عليها النرد » . ولكن لهجة استرابون توحى بأنه كان يرى أن الكورنثيين كانوا يدفعون ثمن قحتهم وتطاولهم على الرومان[٢] .

وأكثر المواضع إفصاحاً عن تعلقه بالرومان وترحيبه بحكمهم ، وصدق إيمانه بالمبادىء الرواقية فى الحكومة العالمية ، هو حديثه عن أمر استيلاء الرومان على مسقط رأسه[٣] . فهو يروى الخبر فى غير حماسة لوطنه أو أسى له أو عطف عليه . ويخيَّل إلينا أن استرابون أصبح رومانياً فى دخيلة نفسه ، يحس

---

(١) ٦ ، ٤

(٢) ٦ ، ٨ .

(٣) ١٢ ، ٣

باحساس الرومان ويطرب لطربهم ويأسى لحزنهم ، فهو شاعر بالمنة الكبرى التى أسبغوها على الانسانية جمعاء إذ وحدوا العالم تحت حكم إدارى سليم [1] ، وطهروا البحار من القرصنة ، وهيأوا للعالم السلام الذى جلب معه الرخاء [2] ، والاطمئنان الذى يسَّر التجارة [3] ، والأمن الذى سهَّل الترحال [4] .

ولعل خبر استيلاء الرومان على مسقط رأسه لم يثر فى نفس استرابون الشجن والأسى لأنه كان شديد الإيمان بأن البلد تحت تحكم الرومان سرعان مايرفل فى حلل الرخاء [5] .

وأولع استرابون بروما ، فلم يقتصر على رحلته الدراسية الأولى سنة ٤٤ ق . م ، بل زارها مرات عديدة بعد ذلك . فإنا لنلقاه فيها سنة ٣٥ ق . م . ففى هذه السنة حُكم على سيلوروس بالموت ، وقد حضر استرابون تنفيذ الحكم [6] ، ونلقاه فيها فى سنة ٣١ ق . م . فقد شاهد حينئذ صورة

---

(١) ١ ، ١
(٢) ٣ ، ٢
(٣) ١٤ ، ٣
(٤) ١٦ ، ٢
(٥) ٣ ، ٣
(٦) ٦ ، ٢

لديونيسوس من عمل أرستيديس معلقـــة فى معبد كيريس إلهة القمح فى روما . وهو يقول « إن النيران قد أتت على المعبد حديثاً فهلكت الصورة »[1] ، والمعبد لم تلتهمه النيران إلا فى سنة ٣١ ق . م .

ولا يمضى إلا قليل حتى نراه ذاهباً إلى روما من جديد فهو يقول « رسوت على جزيرة جياروس حيث وجدت قرية صغيرة يسكنها صيادو السمك ، وعندما أبحرنا من الجزيرة ، اصطحبنا أحد أولئك الصيادين الذين بعثوا إلى أغسطس (الذى كان حينئذ فى كورنثه فى طريقه من مصر ليحيى حفل انتصاره على انطونيوس وكليوباترة بعد موقعة أكتيوم) واستفسرنا من الصياد أثناء الرحلة عن هدفه فقال إنه موفد ليلتمس تخفيض الضرائب »[2] ولم يعد أغسطس إلى روما بعد زيارته لمصر إلا عام ٢٩ ق . م .

وبعد انقضاء إثنتين وعشرين سنة يزور روما زيارته الأخيرة سنة ٧ ق . م ، ولكنه لم يمض هذه الفترة الطويلة قاعداً ، فإن الربع الأول منها قد أمضاه فى مصر .

ثم يمضى بقية عمره المديد فى مسقط رأسه آماسيا ، وإنا لا نقطع بهذا ، ولكن بعده عن مجرى الحوادث السياسية

(١) ٨ ، ٦
(٢) ١٠ ، ٥

بعداً جعل كتابه خلواً من الاشارة إلى الحوادث التى وقعت بين ٦ ق . م و١٤ ب . م . وجهل كتاب روما ومنهم بلينيوس بأمر جغرافيته ، كل هذا يشير إلى بعد محل إقامته ، وأحر به أن يكون مسقط رأسه .

☆ ☆ ☆

كان استرابون فخوراً بعدد الرحلات التى قام بها ، مزهواً بامتيازه على سائر الجغرافيين من هذه الناحية فهو يقول « والآن فإنى سأذكر أى بقاع الأرض وأنحاء البحر زرت بنفسى ، وفى أىّ اعتمدت على روايات الآخرين شفهية كانت أم مدونة . فقد ارتحلت غربا من أرمينية حتى شواطىء إتروريا تجاه جزيرة سردينيه . وارتحلت جنوباً من البحر الأسود حتى حدود ايثيوبية . وإنك لن تجد بين الجغرافيين من جاب أكثر من هذه الآماد التى أتيت على ذكرها ، فالذين ارتحلوا أكثر منى فى المناطق الغربية لم يجوبوا مساحات كالتى جبتها أنا فى الشرق ؛ والذين ارتحلوا أكثر منى فى البلاد الشرقية ، أقل منى ترحالا فى البلاد الغربية . وهذا حق بالنسبة للمناطق التى فى الجنوب والشمال »[1]

وبالرغم من هذا الاعتداد وهذا الفخر ، فإن استرابون لم يكن رحَّالة بالمعنى الذى نطلقه اليوم ، فلم يكن حب الاستطلاع

---

(١) ٢ ، ٥ .

أصيلاً فيه ، ولم تكن الرغبة فى الكشف حادية له على ركوب الصعب من الأمور أو الايغال فى المجاهل غير المعروفة . والرحالة الحق لا يسلك طريقاً مرتين ، فهو يتعمد تغيير سبله إلى أهدافه ، وهذا استرابون لم ير من ايطاليا نفسها إلا جزءاً ضئيلاً ، وهو يسلك إلى روما ومنها طريقاً بعينه هو طريق برنديزى — روما وروما — نابولى — بوتيولى .

ولا يمكن أن نقطع بأنه رأى من بلاد اليونان إلا كورنثة ، حتى مدينة آثينا لم يدفعه الشوق إلى رؤية معالمها .

أما آسيا الصغرى فقد عرفها وزار كثيراً من بقاعها حتى حدود البحر الأسود .

فإذا لم يكن يرتاد هذه البقاع حباً للمعرفة ، وشوقاً للكشف ، ففيم إذن كان ترحاله ؟ .

لقد انقسم العلماء فى الإجابة على هذا السؤال مذاهب ، فيرى « بيز » ، وعمدته فى بحثه هو كتاب استرابون فى الجغرافية ، أن هذا الكتاب لا يمكن أن يصدر عن رجل يرتحل على نفقته الخاصة ، ولأسباب علمية من كشف وتحقيق ، وهو يذهب إلى أن استرابون لم يقم برحلاته بدافع من ذات نفسه ، أو حباً فى المعرفة ، بل كان مدرساً ورائداً لمشاهير الرجال ، يرتحل معهم أينما رحلوا ،

أو يقوم بهذه الرحلات لأداء مصالح لهم تقعد بهم شواغل حياتهم عن أدائها . ومن هنا كان حرصه على ذكر العلماء والفلاسفة الذين ولدوا فى الشرق ، إعلاءً لشأنهم ، لأن مركزه الاجتماعى كان شبيهاً بمركزهم ، ومن هنا أيضاً كان حرصه على تقرير الصلة الوثيقة بين علم الجغرافيا وأعمال القادة والساسة ، وتأكيد فائدته فى إدارة الأعمال الحربية ، وتلبية حاجات الحكام [1] . فالمنتظر إذن أن يكون ترحاله دائماً بصحبة هؤلاء الساسة والحكام . وإن مصاحبة استرابون لأيليوس جاللوس إلى أعالى النيل تشير إلى ارتحاله فى صحبة الحكام الرومان . فهو لم يكن إذن يرتاد الأماكن التى يدفعه اليها حب المعرفة ، أو الرغبة فى التحقيق ، أو الشوق إلى المجهول أو ينتهج السبل التى تدنيه من أغراضه فى طلب العلم ، وإنما كان يذهب حيث يذهب سادته أو حيث يوفدونه ، وينتهج السبل التى ينتهجون .

* * *

متى وأين ولماذا ألف استرابون كتابه فى الجغرافيا ؟ كل هذه أسئلة لانستطيع أن نقطع فيها برأى جازم .

أما أنه ألف الكتاب حباً فى المجد الأدبى ، وسعياً وراء الشهرة فأمر لايحتمل عندنا شكا . ولكن المؤرخ « نيس » يذهب إلى أنه ألف الكتاب بوحى من أصدقائه الرومان

(١) ١ ، ١

من أصحاب المناصب الرفيعة الذين كان يلازمهم ويرافقهم فأحبوا أن تكون معلوماته وتجربته تحت أيديهم إذا ارتحلوا فى غير صحبته .

ويذهب « بيز » إلى أن استرابون كان وثيق الصلة بالأسرة المالكة التى أنشأها پوليمون فى پونتوس . وكان پوليمون هذا مديناً بعرشه للرومان . فقد اكتسب عطفهم عندما دافع ببسالة عن موطنه پونتوس ضد هجوم البارثيين (٤٠ - ٣٩ ق . م) . ولقد أقامه أنطونيوس اعترافاً بفضله وحرصاً على صداقته حاكما على پونتوس سنة ٣٨ ق . م ، وثبته فيها أغسطس بعد موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م . وصار استرابون مستشاراً لخليفة پوليمون الملكة بيثودوريس، فعهدت إليه بتأليف كتابه فى الجغرافية إظهاراً لمكانة مملكتها فى العالم الشرقى ، وضرورة قيامها حائلا دون هجومِ المتبربرين من الشرق . ولما رأى استرابون سادته حريصين أشد الحرص على التقرب من روما ، والذلفى إلى حكامها ، تمادى فى مدحها ، وأغرق فى الإشادة بفضلها والتنويه بعظمة سيدها أغسطس . ولما تبوأ خليفته طيبريوس مكانه ، اضطر استرابون إلى تنقيح كتابه فاقحم فيه كل تلك الاشارات الكريمة إليه ، ولم يكن مصدرها المحبة والاحترام له ، بل الرهبة والخوف منه . فلم يكن الكتاب إذن ممثلا

لوجهة نظر سياسى روما ، بل جاء معبراً عن وجهة نظر يونانى آسيا الصغرى وآمالهم .

* * *

كان الرأى السائد فى القرن الماضى أن استرابون ألف كتابه فى روما فيما بين سنة ١٩ وسنة ١٨ ب . م . ولكن ندرة الاشارة فى الكتاب للحوادث التى وقعت فيما بين ٦ ق . م وسنة ١٤ ب . م . وجهل الكتّاب الرومان بالكتاب فى حين أنه كان معروفاً فى الشرق ، جعلت المؤرخ « ماير » يذهب إلى أن استرابون ألف كتابه فى روما فى منتصف حياته ، وأنه اضطر إلى مراجعته وتنقيحه فى شيخوخته فى السنوات الأولى من حكم طيبريوس .

أما « بيز » فيذهب إلى أن الكتاب لم يحرر ولم ينقح فيما بعد فى روما ، إنما حُرر ونُقح فى أماسيا بعيداً عن قلب العالم المتمدين ، وبعيداً عن المكتبات والمراجع ، وهذا يفسر كثيراً مما أهمل استرابون من حوادث، ومما ارتكب من أخطاء، ومما أغفل من مسائل كانت جديرة بأن تجد طريقها إلى كتابه لو أنه كان مقيماً فى روما . وقد لاحظ « بيز » أن استرابون قلما يذكر حادثة فى حياة أغسطس فيما بين سنة ٦ ق . م

و ١٤ ب . م . وحيث أنه كان يحرص على استغلال كل مناسبة لـكيل المدح لأغسطس ، وحيث أن بعض هذه الحوادث كان من الضخامة بحيث لا يمكن أن نعزو إلى استرابون الجهل بها ، أو قلة الحرص على إثباتها ، فقد استنتج أن الكتاب قد ألف حوالى سنة ٧ ق . م . أما الروايات التى تدور على حوادث وقعت بعد هذا التاريخ ، والاشارات إلى كرم طيبريوس وحنكته ، وقصة تنصيب زينو ملـكا على أرمينية سنة ١٨ ب . م . فقد أدخلت على متن الكتاب عند مراجعته سنة ١٨ ب . م .

وفى الكتاب إشارة إلى موت جوبا ملك موريتانية وقد مات سنة ٢٣ ب . م . فلا بد أن تكون قد أضيفت إلى الكتاب بعد موت صاحبه ، منقولة من كتاب آخر .

* * *

لقد استفاضت شهرة استرابون كجغرافى إلى حدٍّ بعيد ، حتى أن الناس كثيراً ما ينسون أنه كان مؤرخاً قبل أن يكون جغرافياً . وقد جمع مادة جغرافيته يوم كان يجمع مادة تاريخه الكبير الذى كان يتألف من سبعة وأربعين كتاباً [1] ، فالأولى بنا أن نقول إنه أصبح جغرافياً لأنه كان من قبل مؤرخاً . ولكن كتابه فى الجغرافيا قد وصل الينا ، وكتابه فى التاريخ قد ضاع فى غمر السنين ، والناس يحكمون بما فى أيديهم .

(١) ١ ، ١ و ٣ ،

ولنستمع الآن إلى قول استرابون نفسه فى كتابيه « الصور التاريخية » و « الجغرافية » ، وهو القول الذى يسوقه إلى القارىء فى مقدمة كتابه « الجغرافية » :

« أحرِ بكتابي هذا أن يكون مفيداً للسياسى والجمهور عامة على حد سواء ، كما كان كتابى « الصور التاريخية » . فى هذا الكتاب كما فى ذاك — لا أعنى بالسياسى الرجل الذى خلا من العلم خلواً تاماً ، وإنما أعنى الرجل الذى ألمّ بالمنهج الدراسى الذى يتلقاه عادة أحرار الرجال ودارسو الفلسفة ، ذلك أن الرجل الذى لا يعنى بالفضيلة وبالحكمة العملية وبما كتب فيهما ، لن يتيسر له أن يكوّن رأيا صحيحاً لا مادحاً ولا قادحاً ، ولا أن يصدر رأياً فى المسائل التاريخية التى استحقت التسجيل فى هذا السفر . وبعد أن كتبت « الصور التاريخية » الذى كان معيناً فيما أظن على فهم الفلسفة الأخلاقية والسياسيه ، قررت أن أكتب هذه الرسالة ، لأن هذا الكتاب قائم على نفس الخطة ومقصود به الطائفة نفسها من القراء ، وأخص منهم الذين يشغلون مراكز رفيعة فى الحياة .

هذا ، وكما أننى فى كتاب « الصور التاريخية » قد أثبت سير الرجال المبرزين وحدها ، وأهملت الحوادث التافهة الوضيعة إهمالا ، فكذلك الأمر فى هذا الكتاب ، لم أحفل بالحوادث

التافهة المغمورة ولم أثبتها . فقد صرفت عنايتى إلى كل ما هو نبيل عظيم ، وإلى ما ينطوى على ما يفيد أو يحفز أو يشوق. وبعد، فكما أننا فى الحكم على التماثيل الضخمة لا نقف عند كل جزء بعينه فنفحصه بعناية ودقة ، وإنما نتدبر تأثيره العام لنرى إذا كان التمثال مرضياً بوجه عام ، فعلى هذا النحو أيضاً ينبغى أن يُنقد كتابى هذا . فهو أيضاً عمل ضخم لأنه لا يتناول من الحقائق إلا مايدور حول الأمور الشاملة الكلية . أما توافه الأمور فلم أثبت منها إلا ما عساه أن يثير اهتمام الباحثين العمليين . وإنى قد تكلمت بهذا الإسهاب لأبين أن الكتاب الراهن كتاب جدى جدير بالفيلسوف (١) .

والحق أن كتاب « الجغرافية » موسوعة من المعلومات الجغرافية والتاريخية التى تتعلق بالبلاد المختلفة من العالم المتمدين كما عرفه الفلاسفة والعلماء فى مستهل العصر المسيحى . وهو كتاب فى الجغرافية التاريخية أو كما قيل بحق فى فلسفة الجغرافية .

(١) ١ ، ١ ، ١

— ٢ —

الكتاب ومصادره

لقد اتسعت المعلومات الجغرافية منذ القرن الثالث قبل الميلاد لما حرصت عليه المدرسة المشائية من معرفة حقائق العالم الذى يحيط بها ، وتقدمت الجغرافية الوصفية بفضل فتوحات الاسكندر الأكبر ومن كان يصطحب من العلماء للتسجيل والتدوين . وازدهرت الجغرافية النظرية فى المدرسة الاسكندرية بما امتازت به من نزعة علمية أصيلة ، وما توفر لها من سبل البحث والتحقيق والاستقصاء .

وليس لدينا من دليل قائم على أن استرابون تعمق أبحاث من تقدموه من الجغرافيين أو زاد عليها . بل هو لم يحسن استغلال المراجع التى كانت بين يديه . فهو يعتمد كل الاعتماد على الكتاب اليونان ، ويغفل الكتاب الرومان إغفالاً ، فلم يستعن إلا نادراً بالتقارير الحربية للفتوحات الرومانية وقد كانت حريّة أن تزوده بمعلومات جغرافية هامة مبنية على المشاهدة وواقع الحال فى آسيا وأوروبا على

السواء . وهو مع حرصه على عزو فضل فتح غرب أوربا وشمالها إلى الرومان ، لم يستغل المعلومات الجديدة التي أضافوها إلى العلم ، فهو مثلاً يجهل كل الجهل أمر الحملة التي قام بها بالبوس سنة ١٩ ق . م لغزو الصحراء الكبرى وارتياد مجاهلها . ومع ذلك فقد استعان بتقارير يوليوس قيصر « في حرب الغال » واستق منها وصفه لفرنسا وجبال الألب .

وهو عميق الاحترام لهوميروس ، شديد الاعتداد بشعره ، يعتبره مورداً لا ينضب للعلم والمعرفة ، فهو يحمل شعره أكثر مما يحتمل من معان ، ويتخذه أساساً لوصف بلدان كان يستطيع أن يصفها بعد مشاهدتها أو يعتمد في وصفها على الكتاب المعاصرين .

وهو لا يكن لهيرودوت تقديراً كبيراً ويعده من كتاب الروايات والقصص ، ولكنه لا يفرق بين ما ساقه هيرودوت مساق الرواية التي سمعها من الناس فأثبتها لطرافتها ، وبين ما دونه من ملاحظاته الخاصة .

ولم يكن لاسترابون مقياس عام يقوّم به أقدار الجغرافيين ، فكان أحياناً يأخذ بآراء من يشايعونه في فلسفته الرواقية ، ويسفه آراء غيرهم من مخالفي فلسفته مع أنها تستحق كل تقدير واحترام . فهو يرفض أقوال بيثياس من أهل مارسيليا في وصف شمال أوروبا ويدعوه كاذباً ، مع أنه من المحقق أنه قد عبر مضيق جبل طارق

وسار بحذاء شاطىء أوروبا الغربى والجزائر البريطانية ، ووصل إلى النهر الذى سماه نهر تانايس وهو على الأرجح نهر الإلب . وإنا لنقف على هذه المعلومات من كتاب استرابون نفسه ، ولكنه يقتبسها ليبين أى مدى بلغ بيثياس من الإرجاف بالأكاذيب . وكذلك نظر إلى الروايات التى ساقها ميجاستينيس فى وصف الهند ، مع أن سليوكوس قد أوفده عدة مرات بين ٣٠٢ – ٢٩١ ق . م إلى ملك الهند الكبير شاندرا جوتبا .

والكتاب يعد شائق ، طلى العبارة ، جاء فى أسلوب سهل يناسب مادته لا تكلف فيه ولا تقعر ، وعباراته سلسلة واضحة إلا فى المواضع التى دخل عليها شىء من التحريف أو التبديل . وهو من الناحية الوصفية يفوق كل ما عداه من كتب الجغرافية فى العالم القديم ، ولو أنه لا يمتاز بحسن التصميم أوبراعة الإخراج ، فالموضوع ليس موزعاً توزيعاً عادلا على أجزاء الكتاب ، فهو يقصر كتاباً واحداً على إفريقية كلها مع أنه يفرد ستة كتب لكل من آسيا و أوروبا . والسفر كله مقسم إلى سبعه عشر كتاباً :

الكتاب الأول : يتحدث فيه استرابون عن هوميروس وعلو كعبه فى الجغرافيه ، ويناضح عن آرائه ضد آراء إراتوستنيس ، ويحاول تفنيد بعض هذه الآراء ، ثم ينتقل بالحديث إلى التغييرات الطبيعية

التى تعتور سطح الأرض وعوامل التعرية وهنا يميل إلى إراتوستنيس ضد هيبارخوس ثم يصحح آراء إراتوستنيس فى مساحة العالم وتقسيمه ، ثم يأتى الحديث عن القارات الغربية واحتمال وجودها ، ولعل هذا الباب هو أحفل أبواب هذا الكتاب بالإشاقة .

الكتاب الثانى : ينقد فيه نظرية پوزيدونيوس وپوليبيوس فى تقسيم الأرض إلى ست مناطق ، ويعرض نظريته فى تقسيمها إلى خمس مناطق . ويشير إلى إبحار يودوكسوس حول إفريقية ، ثم يختمه بنظرة عامة فى البحور والبلدان والشعوب ونظام المناخ .

وهذان الكتابان رسالة قائمة برأسها . فهما استعراض نقدى لتقدم علم الجغرافية منذ أقدم العصور إلى عصر استرابون .

الكتاب الثالث : يدور على وصف أسبانيا ، وهو يعتمد هنا على أرتميدوروس و پوليبيوس و پوزيدونيوس وكلهم كتبوا بعد شهادة عيان .

الكتاب الرابع : يدور على وصف بلاد الغال وبريطانية وإيرلندا وجبال الألب . وهو يعتمد فى وصف بلاد الغال

على يوليوس قيصر، وفى وصف جبال الألب على بوليبيوس، ويقتبس شطراً من أقوال بيثياس فى وصف إيرلندا.

الكتاب الخامس: يشمل وصف شبه جزيرة إيطاليا، وينقسم فيه تاريخ إيطاليا إلى قديم وحديث، يعتمد فى القديم على بوليبيوس وفى الحديث على معلوماته الخاصة.

الكتاب السادس: يعدّ تكملة للكتاب السابق، لأنه يدور على الجزء الجنوبى من إيطاليا، وهو الجزء الذى كان يشغله اليونان ويعد جزءاً من بلادهم ويسمى بلاد اليونان الكبرى، ويلى هذا وصف مفصَّل لجزيرة صقلية، وينتهى الكتاب بملاحظات عامة على امتداد الأمبراطورية الرومانية. وهو يعتمد فى هذا الكتاب على بوليبيوس و إراتوستينيس و أرتميدوروس و إيفوروس وكيكيليوس.

الكتاب السابع: يتناول فى الجزء الأول من هذا الكتاب الشعوب التى تسكن شمال نهر الطونة، وفى الجزء الثانى الشعوب التى تسكن جنوبه. ويعتمد فى هذا كله على بوليبيوس، و بوزيدونيوس

وثيوپومپوس وإيفوروس . ولم يصلنا هذا الكتاب كاملا ، فقد ضاع الجزء الأخير منه .

الكتاب الثامن : يتناول شبه جزيرة المورة .

الكتاب التاسع : يصف أثينا وما حولها ثم بيوشيا وفوكيس ولوكريس وتساليا .

الكتاب العاشر : يدور حول يوبويا وإيطوليا وأكرنانيا ، ثم يصف جزيرة كريت وجزائر بحر إيجة ، وبهذا الكتاب ينتهى وصف أوروبا . وهذه الكتب الثلاثة وهى مقصورة على بلاد اليونان تكون وحدة قائمة بذاتها . وهى تختلف عن سائر الكتب فى بنائها العام وطريقة عرضها للموضوع ، وتفتقر إلى الترتيب والتنسيق والتبويب ، وهو يعتمد فيها على أقوال هوميروس ويتخذها أساساً لوصفه .

الكتاب الحادى عشر : تناول فيه وصف جبال طورس وبحرى قزوين وآزوف وما بينهما ، وما يلى جبال القوازق جنوباً . وقد اعتمد فى هذا على هيرودوت وأرتميدوروس وإراتوسثنيس وپوزيدونيوس وثيوفانيس وهيبسيكراتيس

وكليتارخوس وپاتروكليس وأرسطوبولوس وديلليوس وأپولينيديس .

الكتاب الثانى عشر : يبدأ فيه وصف آسيا الصغرى، وهى بلاد شديدة القرب من مسقط رأسه ، ومع ذلك فيعتمد فى وصفها على هيرودوت وهيللانيكوس وثيوپومپوس وإيفوروس وأرتميدوروس وديمتريوس وكزانثوس .

الكتاب الثالث عشر : يتصل فيه وصف آسيا الصغرى ، ويسهب فيه فى وصف طروادة وقد زارها ومكث فيها ولكنه يعتمد اعتماداً كبيراً على شعر هوميروس وعلى ديمتريوس الذى ألف سفراً ضخماً فى شرح الكتاب الثانى من الالياذة وفيه يعدد هوميروس قوات الطرواديين ، ثم يكتب فصلاً طويلاً فى أول من استعمر آسيا الصغرى من أسلاف الاناضوليين .

الكتاب الرابع عشر : يتم فيه الحديث عن آسيا الصغرى ثم يصف جزيرة ساموس وخيوس ورودس وقبرس ويعتمد فى هذا الكتاب على فريكيديس وأناكسيمينيس

الكتاب الخامس عشر : وصف الهند وفارس . ووصفه للهند قصير
ولكن حديثه عن الشعوب الهندية رائع وهو
يعتمد هنا على مؤرخى حملات الاسكندر ومنهم
أرسطوبولوس أحد رفقاء الاسكندر ومؤرخيه ،
ونيارخوس قائد أسطوله .

الكتاب السادس عشر : يدور على وصف الجنوب الغربى من آسيا ،
فيتناول بلاد مابين النهرين ، وسوريا وفينيقية
وفلسطين والخليج الفارسى والبحر الأحمر
وسواحل الصومال وبلاد العرب . وهو يعتمد
فى وصف بلاد مابين النهرين على مؤرخى
الاسكندر وعلى إراتوستنيس و پوزيدونيوس
وهيرودوت ، ويعتمد فى حديثه عن اليهود على
پوزيدونيوس ، أما بلاد العرب والخليج الفارسى
والبحر الأحمر فيعتمد فى وصفها على أجاثارخيديس.

الكتاب السابع عشر : فيه وصف مصر وإثيوبية وساحل أفريقية
الشمالى . وهو يعتمد فى وصف مصر على
مشاهداته الشخصية ثم على إراتوستنيس
و يودوكسوس وأرسطون و پوليبيوس
وپوزيدونيوس .

ويعتمد استرابون فى وصف إيثيوبية على رواية بترونيوس الذى حارب فيها . وعلى أقوال أجاثارخيديس وهيرودوت ، وروايته فى شمالى إفريقية منقولة برمتها من مؤلفات إراتوسثينيس وأرتميدوروس وپوزيدونيوس كما رجع فيها إلى أبحاث إيفيكراتيس الذى ألف كتاباً فى نبات ليبيا وحيوانها . ويختم الكتاب كله بفصل وجيز فى الولايات الرومانية مايتبع منها فى إدارته قيصراً وما يتبع مجلس الشيوخ ، كتبه على الأرجح فيما بين ٢٢ و ١١ ق.م وجرى فيه قلمه بالتغيير والتبديل حوالى سنة ٧ ب.م.

استرابون فى مصر

لقد شاهدنا استرابون مرتحلاً من آسيا الصغرى عن طريق جزيرة جياروس وكورنثة (١) فاستنتجنا أنه كان فى طريقه إلى روما سنة ٢٩ ق . م . ويحدثنا استرابون قائلاً « عندما جلبت التماسيح إلى روما لتعرض ، كان بصحبتها جماعة من أهل دندرة ، وعندما بنى حوض ومنصة فوق أحد جوانبه لتكون بمثابة مشمسة للتماسيح عند خروجها من الماء ، كان هؤلاء يقفزون فى الماء أحياناً ويجرونها بشبكة نحو المشمسة حتى يراها المشاهدون » ولم تعرض التماسيح فى روما إلا فى الحفلات الرائعة التى أقامها أغسطس سنة ٢٩ ق . م احتفالاً بانتصاره فى موقعة أكتيوم .

وإذن فقد شهد استرابون مواكب النصر احتفالاً بفتح مصر وضمها إلى الامبراطورية الرومانية، وأخذ بما كان يسير فى ركابها من أعلام مصر الحيوانية والنباتية ، فاستشاط خياله واضطرم قلبه شوقاً إلى رؤيتها .

---

(١) ١٠ ، ٥

(٢) ١٧ ، ٤٤

ولاشك فى أن استرابون عندما عرض عليه صديقه ايليوس جاللوس أن يصحبه إلى مصر رحب بعرضه وحمد له ما أتاح له من فرصة لرؤية وادى النيل . ولقد اصطحبه إلى مصر ورافقه فى رحلته إلى أعالى النيل [١]، وكان يومئذ فى الأربعين من عمره . وكان استرابون لا يزال مقيما فى مصر عندما كان أغسطس فى جزيرة ساموس فى ٢٥ ق . م [٢] . وإذن فقد عاش حوالى خمس سنوات فى مصر ، قضى أكثرها ولا شك فى الاسكندرية ، وأغلب الظن أنه عكف فى مكتبة الاسكندرية على الاطلاع على مؤلفات الجغرافيين والرحالة من قبله ، ونقل عنها الكثير من المقتبسات التى يفيض بها كتابه .

ولم تكن الأمور فى مصر مستتبة موطدة فى هذه السنوات الخمس ، ولا بد أن استرابون قد لاقى فى مصر بعض الضيق والحرج . فهذا صديقه وراعيه أيليوس جاللوس قد صدر إليه الأمر من الامبراطور أغسطس [٣] بأن يسير بحملة إلى اليمن لاخضاعها والاستيلاء على مينائها عدن . وجهز جاللوس هذه

(١) ٢ ، ٥ .

(٢) ١٤ ، ١ .

(٣) قال أغسطس فى وثيقة أنقره ٢٦ ، ٥ « سار جيشان بأمرى وتحت إشرافى فى وقت واحد تقريباً ، أحدهما إلى ايثيوبية والآخر إلى بلاد العرب التى تسمى السعيدة . »

الحملة تجهيزاً حسناً إذ جمع ثمانين سفينة فى السويس وابتنى مائة وثلاثين حاملة جنود لينقل عليها عشرة آلاف مقاتل ، هذا إلى أن هيرود قد أرسل إليه سرية من اليهودية ، وزوده عبادة ملك النبطيين (١) بكتيبة ودليل هو سيلايوس .

ولا شك فى أن أيليوس جاللوس لم يحسن إدارة هذه الحملة ولم يكن خبيراً بحرب الصحراء ، فقد كانت السفن الحربية عديمة الجدوى ضد عدو لا يحارب على صفحة الماء ، وأما الحاملات فلم تكن تصلح للرسو على شواطىء بلاد العرب الضحلة .

أبحرت الحملة من السويس ونزلت بالحوراء على الشاطىء النبطى وهناك أمضت فصل الشتاء ، ثم بدأت غزوها وهى لا بد قد أخذت بعض المدن ، ولكن الحر والجفاف والأمراض قد فتكت بالجيش فتكاً ، ولا شك فى أن الجيش قد بلغ « مأرب » ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها واضطر إلى الانسحاب . ولا شك أن هذه الانباء قد أضجت مضجع استرابون ، وجعلت المخاوف تساوره على مستقبل صديقه الحربى والسياسى . وإن قوله عن صديقه « والحق أنه لو لم يخنه سيلايوس لأخضع كل بلاد العرب السعيدة (٢) » لا يعدو أن يكون مجاملة له ، وقلباً للحقائق بجعل سيلايوس كبش الفداء . .

(١) عبادة الثالث ابن مالك الأول ٣٠ ـ ٩ ق . م .

(٢) ١٧ ، ٥٣

وما تصل أنباء الحملة إلى روما حتى تصدر الأوامر بخلع أيليوس جاللوس من ولاية مصر ، حتى قبل رجوعه إلى مصر ، وتنصيب بترونيوس والياً مكانه فى صيف سنة ٢٤ ق . م .

ولكن استرابون لم يغادر البلاد مع صديقه المخلوع وبقى فى مصر أربع سنوات بعد رحيله . فهل استمرأ الحياة فى مصر أم طلب إليه الوالى الجديد أن يكون إلى جانبه ؟ لعلها الأولى ، فقد كان بترونيوس مشغولا عنه بالحروب التى شنها على النوبة والسودان فى ٢٤ و ٢٣ و ٢٢ ق . م . وباخماد الثورة التى قامت ضده فى الاسكندرية . (١)

واقد تجلى طول مكث استرابون فى الاسكندزية فى هذا الوصف الشامل للمدينة وضواحيها (٦ - ١٣) ، وكان تصعيده فى النيل إلى أسوان وجزيرة بيلاق معيناً له على رؤية كثير من المدن المصرية أثبت منها حوالى مئة مدينة . واقد ذكر استرابون أن عدد مديريات القطر ست وثلاثون ، عشر فى الدلتا وعشر فى أقليم الأقصر وست عشرة فيما بينهما (٢) ولكنه لم يذكر من هذه المديريات فى وصفه الدقيق للبلاد (٢٤ - ٤٠) إلا ّ ثلاثاً

(١) ٣ ، و ٤ ، ٥

(٢) ٣

وعشرين مديرية . واسترابون هو أول من حدثنا حديثاً جديا بالواحات المصرية من المؤرخين أو الجغرافيين القدماء ، فقد ذكر منها الواحات الخارجة والبحرية وسيوة [1] .

* * *

وبعد فهذا كتاب ألفّـه صاحبه منذ قرابة الفين من السنين وتحرى فيه منهجاً علمياً واضحاً ، وأثبت فيه من وصف مصر وعادات سكانها فى تلك الحقبة البعيدة الشيء الكثير . ولنصه عندنا حرمة تجعلنا نتحـــرج من التصرف فى الترجمة ولذلك آثرنا الاقتراب من الأصل [2] ما وسعت اللغة ، مبرزين أسلوب المؤلف وطرائق تعبيره التى تنم عن خصاله الذهنية حتى يستشفها القارىء من أقواله ، وأبقينا على أسماء المدن كما جرى بها قلمه ، وأثبتنا ما يقابلها فى العصر الحديث ، وكذلك الأمر فى الموازين والمكاييل والأطوال .

وهيب كامل

(١) ٤٢

(٤) اعتمدنا النص الذى أخرجه ما ينكه فى مطبعة توبينر سنة ١٨٥٢ ، مع مراعاة القراءات التى اثبتها جونز سنة ١٩٣٢ .

استرابون في مصر

١ — حيث أنني في وصف بلاد العرب قد ألممت بالخليجين اللذين يحيطان بها ويحيلانها شبه جزيرة - الخليج الفارسي والخليج العربي - وفي الوقت نفسه أحطت ببعض بقاع من مصر وإيثيوبية (١) وهي مواطن التروجلوديتيين (٢) والشعوب التي تليها حتى بلاد الصومال (٣) فلأثبت الآن وصف الأجزاء الباقية المتاخمة لهذه الشعوب وهي البلاد المحيطة بالنيل ، وبعد ذلك سألم بليبيا وهي البقية الباقية من جغرافيتي كلها .

وينبغي أن أسوق هنا آراء إراتوسثنيش (٤) .

---

(١) إيثيوبية تعني عند اليونان الأقدمين كل مايلي مصر جنوباً وتشمل النوبة والسودان وإيرتريا .

(٢) التروجلوديتيون هم سكان الكهوف وقد عرفهم استرابون (الكتاب الأول ، الفصل الثاني) بقوله « قبيلة من الأعراب تعيش على ساحل البحر الأحمر فيما يلي مصر وايثيوبية » . راجع هيرودوت (٣ ، ١٨٤) وديودور الصقلي (١ ، ٣٠ ، ٣٧ و ٣ ، ٣ ، ٣٢ — ٣٣)

(٣) كان ساحل الصومال يسمى بأسماء منتجاته من العطور والتوابل ثم غلبت عليه كله تسمية ساحل القرفه وهي التسمية التي يثبتها إسترابون .

(٤) اراتوسثنيس القوريناني (٢٧٥ — ١٩٤ ق . م) كان تلميذاً للشاعر السكندري كاليماخوس ، ورحل إلى أثينا حيث درس على أركسيلاوس وأريسطون ثم استجاب لدعوة بطليموس الثالث ليخلف أپولوينوس الرودسي على رئاسة مكتبة الاسكندرية . برع في فنون كثيرة وأخرج كتاباً في الجغرافيا سماه « أبعاد الأرض » حسب فيه محيط الأرض ، وحجم الشمس والقمر ومقدار بعدهما عن الأرض ، وكتابه « في الجغرافيا » أول مؤلف علمي في الجغرافيا الطبيعية والرياضية والبشرية ، وهو الذي يعتمد عليه استرابون هنا .

٢ — فهو يقول إن النيل يبعد عن البحر الأحمر من ناحية الغرب مسافة ألف أو تسعمائة ستاد ، وإنه يشبه الحرف الهجائى N مقلوباً . ذلك بأنه بعد أن يجرى من مروى نحو الشمال حوالى ٢٧٠٠ ستاد يرتد ثانية نحو الجنوب والغروب الشتوى حوالى ٣٧٠٠ ستاد وأنه بعد أن يوشك أن يواجه المناطق المحيطة بمروى ويندفع كثيراً فى الناحية الليبية يرتد ثانية وينساب نحو الشمال مسافة ٥٣٠٠ ستاد إلى الشلال الكبير منحرفاً قليلا نحو الشرق ثم يجرى مسافة ١٢٠٠ ستاد إلى الشلال الصغير بالقرب من سينى ثم يجرى مسافة ٥٣٠٠ ستاد أخرى إلى البحر . ويصب فى النيل نهران ينسابان من بعض البحيرات فى الناحية الشرقية ويحيطان بمروى[١] وهى جزيرة كبيرة ، وأحدهما يسمى أستابوراس[٢] وهو الذى ينساب على الجانب الشرقى ، ويسمى الآخر آستابوس[٣] . ويسميه البعض أستاسوپاس . ويذهب هؤلاء إلى أن الأستاپوس نهر آخر[٤] ينساب من بعض البحيرات من الجنوب وأن هذا النهر هو الذى يكوّن الجزء المستقيم تقريباً من بنية النيل ، وأن

---

(١) هى أرض الجزيرة بين النيل والعطبرة .

(٢) العطبرة .

(٣) هو النيل الأبيض ، ويقول ديودور الصقلى ١ ، ٣٧ أن الكلمه معناها « مياه من الظلام » .

(٤) يعنى النيل الأزرق .

الأمطار الصيفية هي التي تزوده بالماء . وتقع مروى [1] إلى الشمال عن ملتقى الأستابوراس والنيل بمسافة ٧٠٠ ستاد ، وهي مدينة تسمى باسم الجزيرة . وتوجد جزيرة أخرى فوق مروى يستحوذ عليها الفارون من المصريين الذين ثاروا فى عهد بسماتيك ويسمون سمبريتيون [2] وهى كلمة تعنى الأجانب . وتحكم هؤلاء إمرأة ، وهم خاضعون لحكام مروى . ويسكن الأجزاء السفلى على جانبي مروى على طول النيل من ناحية البحر الأحمر الميجاباريون والبلميون [3] الخاضعون للايثيوبيين والمجاورون للمصريين . ويسكن التروجلوديتيون الأجزاء الواقعة على البحر . ويقع التروجلوديتيون المواجهون لمروى على مسيرة ١٠ أو ١٢ ستاد من النيل . أما الأجزاء الواقعة على الضفة اليسرى من مجرى النيل والواقعة فى ليبيا فيسكنها النوبيون وهم قبيلة كبيرة ينتشرون من مروى إلى منحنيات النيل ، وهم ليسوا خاضعين للايثيوبيين ، ولكنهم مقسمون إلى ممالك منفصلة . وامتداد مصر على ساحل

---

(١) بالقرب من مدينة شندى الحالية حيث وجدت آثار كثيرة ذات طابع مصرى ، ولعلها بكاراويجا .

(٢) يسميهم هيرودوت « ٢ ، ٣٠ » « الأسماخ » ويقول ان الكلمة تعنى فى اليونانية « الذين يقفون ناحية يد الملك اليسرى » وأنهم كانوا من طبقة الجند وبلغ عددهم ٢٤٠٠٠ مقاتل .

(٣) البلميون هم قبائل «البجة» الحالية ، ويرى البعض أن الميجاباريين والبلميين أصل البشاريين والعبابده .

البحر من الفرع البيلوزى[1] إلى الفرع الكانوبى[2] هو ١٣٠٠ ستاد.

هذه إذن هى أقوال إراتوستنيس .

٣ — ولكن ينبغى أن نتحدث بشىء من الأسهاب أولا عن البقاع المجاورة لمصر حتى ننتقل من الأماكن المعروفة نوعاً إلى التى تليها بالترتيب ، لأن النيل يؤثر بعض تأثيرات مشتركة فى هذا الإقليم وفى الإقليم الذى يتاخمه ويقع جنوبه أى بلاد الايثيوبيين من حيث أنه يرويها فى ارتفاعه ويخلف منها صالحاً للسكنى ذلك الجزء الذى يغمر أثناء الفيضان فقط . ويخترق فحسب كل الأجزاء العالية والمرتفعة عن مجراه ويتركها على الجانبين غير آهلة وصحراء بسبب عدم المياه نفسه . ولكن النيل لايخترق ايثيوبية كلها لا وحده ولا فى خط مستقيم ، ولا يخترق الأجزاء الآهلة جداً ، ولكنه وحده يخترق مصر كلها وفى خط مستقيم[3] بادئاً من الشلال الصغير جنوبى سينى والفنتينى وهى الحدود بين مصر وأيثيوبية إلى مصباته على البحر . والواقع أن الإيثيوبيين يحيون فى الاكثر حياة الرحل الخشنة لشدة قحولة البلاد ، ولعدم اعتدال مناخها ولبعدها عنا . والأمر بالنسبة للمصريين على العكس من ذلك من حيث جميع هذه الاعتبارات ، لأنهم كانوا يحيون منذ البدء حياة مدنية مهذبة ،

---

(١) فرع دمياط . (٢) فرع رشيد .

(٣) لم يصف واحد من الجغرافيين القدماء حنية النيل الكبيرة عند قنا .

واستقروا فى مناطق معروفة حتى أن أنظمتهم لتؤثر عنهم . وهم يمدحون إذ عرف عنهم أنهم أحسنوا استغلال حسن طالع بلادهم . وقد أجادوا تقسيمها والعناية بها إذ أنهم عندما نصّبوا ملكاً ، قسموا الشعب إلى ثلاث طبقات وسموا إحداها طبقة الجند والثانية طبقة الفلاحين والثالثة طبقة الكهنة . (١) ووكلت هذه الطبقة الأخيرة رعاية الأشياء المقدسة وللطبقتين الأخريين العناية بأمور الناس ، فكان على طائفة أن تعنى بشئون الحرب ، وعلى أخرى أن تعنى بشئون السلم من فلاحة الأرض وممارسة الحرف ، ومن هذه المصادر كان يُجبى الدخل للملك . أما الكهنة فكانوا يتعاطون الفلسفة والفلك وكانوا رفقاء الملوك . ولقد قسمت البلد أولاً إلى مقاطعات ، عشر منها فى اقليم طيبة ، وعشر فى الدلتا وست عشرة فيما بينها (٢) . (ويذهب البعض إلى أن عدد هذه المقاطعات كلها مثل عدد الأبهاء فى قصر اللابيرنثة ، ولكن هذه الأبهاء تقل عن الثلاثين (٣)) وقسمت هذه المقاطعات

---

(١) ورد ذكر نظام الطبقات فى مصر فى هيرودوت ٢ ، ١٦٤ – ١٦٧ ، وديودور الصقلى ١ ، ٧٣ ، وافلاطون « تيماوس » ص٢٣ وايسقراط « بوسيريس » ١٥ ، ١٧ وكلهم يجمعون على أن الطبقه الأولى مؤلفة من الكهنة والثانية من الجند .

(٢) لم يذكر استرابون فى وصفه الدقيق للبلاد ٢٤ – ٢٩ من هذه المقاطعات الست والثلاثين إلا ثلاثاً وعشرين مقاطعه .

(٣) يرى البعض أن يعدل النص هنا إلى ست وثلاثين بدلا من ثلاثين .

من جديد إلى أقسام أخرى لأن أكثرها كان مقسماً إلى محافظات وهذه كانت مقسمة إلى أقسام أخرى . وكانت أصغر الأقسام الأفدنة (١) . ولقد قامت الحاجة إلى هذا التقسيم المضبوط الدقيق من جراء اضطراب الحدود المستمر الذى يحدثه النيل أثناء فيضانه إذ أنه يزيل ويضيف ويغيّر المظاهر الخارجية ويخفى سائر العلامات التى تحدد بها الأرض الخاصة من أرض الآخرين . فمن الضرورى إذن أن يعاد مسح الأرض مرة بعد مرة ، ومن هنا نشأ علم المساحة فيما يقولون كما نشأ علم العد والحساب عند الفينيقيين بسبب التجارة . وكان الناس فى كل مقاطعة مقسمين إلى ثلاث طبقات شأنهم فى ذلك شأن الشعب كله ، إذ أن الأرض كانت مقسمة إلى ثلاثة أقسام متساوية . وإن انصرافهم إلى شئون النهر قد وصل إلى حدّ أنهم يقهرون الطبيعة بالجد ، ذلك أن الأرض عندهم تنتج بالطبيعة محصولاً أكبر مما تنتج سائر الأراضى ، وهى تنتج أكثر من ذلك إذا ما رويت ، والفيضان العالى للنهر يروى من الأرض مساحة أكبر . ولكن الجد كثيراً ما ينجح حيث تخفق الطبيعة ، حتى أنه ليروى من الأرض فى الفيضان المنخفض مثل ما يروى منها فى الفيضان المرتفع بواسطة

(١) يعنى استرابون الفدان فى مصر القديمة وقد قال هيرودوت ٢ ، ١٦٨ «الفدان المصرى مربع طول كل ضلع من أضلاعه مائة ذراع مصرى » .

الترع والجسور . ومهما يكن من شيء فانه فى العهد السابق لبترونيوس (١) كان المحصول أكبر ما يكون والفيضان أعلى ما يبلغ إذا ارتفع النيل ١٤ ذراعاً ، ويكون القحط إذا ارتفع ثمان أذرع فقط . ولكن عندما سجل مقياس النيل إثنتى عشر ذراعاً فحسب أثناء حكمه للبلاد ، كان المحصول أكبر ما يكون . وسجل المقياس مرة تسع أذرع فقط ولكن أحداً لم يشعر بالقحط . هذا هو النظام فى مصر . والآن فلنتحدث عن النقطة التالية .

٤ — ينساب النيل من الحدود الايثيوبية فى خط مستقيم نحو الشمال إلى الإقليم الذى يدعى الدلتا ، وعندئذ يشق رأسه كما يقول أفلاطون (٢) ويجعل هذه المنطقة كأنها رأس مثلث ، وضلعا المثلث الشقان اللذان ينسابان كل فى اتجاه ويمتدان إلى البحر ، فينساب الواحد إلى اليمين عند بيلوزيوم (٣) والآخر إلى

(١) هو جايوس بترونيوس ثالث ولاة مصر من قبل الامبراطور اغسطس ، حكم مصر من ٢٥ — ٢١ ق . م ولما استتبت له أمور الحكم ، صرف جنده إلى تطهير الترع مما عاد بالخير على البلاد . ويعنى استرابون بالعهد السابق لبترونيوس أواخر حكم البطالمة فى مصر .

(٢) راجع « تيماوس » ص ٢١

(٣) تل الفرما جنوب شرقى بور سعيد .

اليسار عند كانوبوس [١] وما يجاورها أى مدينة هيراقليوم [٢] .
أما القاعدة فشاطىء البحر الواقع بين بيلوزيوم وهيراقليوم .

تكونت إذن جزيرة من البحر وفرعى النيل وهى تدعى الدلتا لشدة شبه شكلها بحرف الدال اليونانية △ وقد سميت المنطقة الواقعة عند رأس الدلتا بهذا الاسم لأنها مبدأ الشكل المذكور وتسمى القرية التى تقع فيها الدلتا [٣] أيضاً . وإذن فللنيل مصبان أحدهما الذى يسمى الفرع البيلوزى والآخر المسمى الفرع الكانوبى أو الهيراقلى . ولكن يوجد بين هذين خمسة مصبات أخرى تستحق الذكر ومصبات عديدة أخرى أصغر منها . ذلك أنه قد تفرعت من الفرعين الأولين فروع كثيرة فى الجزيرة كلها وكونت مجارى وجزراً حتى أن الدلتا كلها أصبحت صالحة للملاحة ، وقد شقت فيها ترع فوق ترع . وهذه يُبحر فيها بسهولة حتى أن بعض الناس يتخذون مراكب من الفخار [٤] . ويبلغ محيط الجزيرة

(١) كوم سمعدى جنوب أبى قير .
(٢) الطابية الحمراء أو الكوم الأحمر .
(٣) قد تكون قرية الوراق .
(٤) قال جوفناليس فى قصيدته الهجائية ١٥ ، ١٢٧ يندد بالشعب المصرى « هاج الشعب الجبان التافه الذى تعود أن يضع القلاع الصغيرة على القوارب الفخارية ، وأن يستعمل مجاديف ضئيلة فى قواربه المتخذة من الخزف المطلى » . انظر أيضاً فرجيل فى « قصائده الزراعيه » ٤ ، ٢٨٧ ـ ٢٨٩ ، ولوكريتيوس « فى طبيعة الأشياء » ٤ ، ١٣٦ .

كلها ٣٠٠٠ ستاد ، وهم يسمونها أيضاً مصر السفلى هى ومايقابلها من أراضى الدلتا النهرية . وهى فى أثناء الفيضان تغطى كلها وتُغمر فيما عدا المدن [1] ، وهى منشأة على تلال طبيعية أو تلاع صناعية وهى مدن وقرى جديرة بالذكر تبدو كالجزر لمَّا ترى من بعيد . ويبقى الماء أكثر من أربعين يوماً من الصيف وحينئذ يبدأ فى الإنخفاض شيئاً فشيئاً كما ارتفع . وينكشف السهل تماما ويأخذ فى الجفاف فى ستين يوما ، وما أن تجف الأرض حتى يبادروا إلى الحرث والبذر ، ويكون الجفاف سريعاً فى الجهات التى تزيد فيها الحرارة . وعلى هذا النحو نفسه تُروى الأراضى جنوبى الدلتا فيما عدا أن النهر ينساب فيها فى خط مستقيم حوالى ٤٠٠٠ ستاد فى مجرى واحد ، إلا حينما تعترضه جزيرة، وأشهر هذه الجزر هى التى تكوّن المقاطعة الهيراقلية ، أو حيث يوجه النهر إلى حد أكبر من المعتاد بوساطة قناة إلى بحيرة واسعة أو إلى إقليم يمكنه أن يرويه كما فى حالة القناة التى تُروى مقاطعة أرسنوى [2] وبحيرة موريس [3] مثلا ، ومثل الترع المنتشرة على بحيرة مريوط .

وجملة القول أن مصر تتألف من أراضى النهر فحسب ، وهى

---

(١) قال هيرودوت ٢ ، ٩٧ « وحينما يغمر النيل البلاد ، تبدو المدن وحدها فوق الماء ، وتكون شبيهة بعض الشيء بالجزائر التى فى بحر ايجه » .

(٢) أقليم الفيوم .

(٣) بحيرة قارون ، راجع وصفها فى هيرودوت ٢ ، ١٤٩ .

آخر وادى النهر على الجانبين ، الذى يبدأ عند حدود أيثيوبية ويمتد إلى رأس الدلتا وقلما يشغل حيزاً آهلا باستمرار عرضه ٣٠٠ ستاد . وعلى ذلك فالوادى حين يجف يشبه شريطاً ممتداً باستثناء انحناءاته الكبرى . والذى يحدد شكل الوادى هذا الذى أتحدث عنه ومنظر البلاد كلها، هى الجبال التى تمتد على الجانبين من المناطق التى حول سينى إلى البحر المصرى لأنه بقدر ماتكون هذه الجبال متقاربة أو متباعدة عن بعضها بقدر ما يكون وادى النهر ضيقاً أو واسعاً ويعطى البقاع المأهولة أشكالها المختلفة . ولكن الأرض فيما وراء الجبال غير صالحة للسكنى إلى حدّ بعيد .

٥ — ولقد كان القدماء يعتمدون على التكهنات ، أما المتأخرون وقد أصبحو شاهدى عيان ، فقد لاحظوا أن النيل يمتلىء بالأمطار الصيفيه عند ما تغمر الأمطار أيثيوبية الشمالية وخصوصاً جبالها القصية البعد ، وأنه عند ما تكف الأمطار ينتهى الفيضان شيئاً فشيئاً . ولقد أصبحت هذه الحقيقة واضحة جداً للذين أبحروا فى البحر الأحمر إلى بلاد الصومال وللذين بُعثوا لصيد الفيلة [٢]

---

(١) يعنى الفلاسفة الطبيعيين والجغرافيين القدماء وقد أورد ديودور الصقلى نظرياتهم فى ١ ، ٣٨ — ٤١

(٢) لقد اضطر البطالمه لمواجهة الفيلة الهندية التى كان يستعين بها سليوكوس فى الحرب والتى كانت عاملا من عوامل انتصاره فى إبسوس الى جلب الفيلة من إفريقية . فنظم بطليموس الثانى بعثات لصيد الفيلة ، كانت احداها تحت إمرة =

أو لأى غرض آخر مما يكون قد حفز ملوك مصر البطالمة لايفاد بعثات إلى هناك . ذلك أن هؤلاء الملوك كانوا مولعين بأشياء من هذا القبيل وخصوصاً الملقب منهم بفيلادلفوس[1] فقد كان محباً للبحث وكان دائم السعى وراء ملاهى ومسليات جديدة بسبب ضعف بنيته . ولم يكن الملوك القدامى مولعين بمثل هذه الأمور على الإطلاق ولو أنهم كانوا مغرمين بالعلم وكذلك الكهنة أيضاً الذين كانوا يمضون معهم الشطر الأكبر من حياتهم حتى أنه ليجدر بنا أن نعجب من ذلك ، ومن أن سيسوستريس[2] قد جاب أيثيوبية كلها حتى بلاد الصومال ، وأن نصباً تخلد رحلته وأعمدة ونقوشاً لاتزال ترى هناك إلى الآن . هذا إلى أن قمبيز بعد أن استولى على مصر قد تقدم مع المصريين حتى مروى وقد أطلق هذا الاسم على كل من الجزيرة والمدينة ، لأن أخته مروى (ويذهب البعض إلى أنها زوجه)[3] قد ماتت هناك فيما يقولون.

= ساتيروس،وأخرى تحت إمرة أريسطون ، وأخرى تحت إمرة يوميديس . ولقد تجلى للبطالمة خصوصاً بعد موقعة رفح سنه ٢١٧ ق . م أن الفيلة الافريقية ليست قابلة للتدريب مثل الفيلة الهندية ومن هنا كان جفولها أمامها فى الحرب ، ولقد أدى هذا الى قلة بعثات صيد الفيلة فى عهود البطالمة المتأخرين .

(١) هو بطليموس الثانى ٣٠٨ — ٢٤٦ ق . م حكم فى ظل أبيه منذ ٢٨٥ ق . م ثم منفرداً منذ ٢٨٢ ق . م .

(٢) هو على الأرجح سنوسرت الثالث من فراعنه الأسرة الثانية عشر .

(٣) يقول ديودور الصقلى أنها أمه ١ ، ٣٣ .

ومهما يكن من شيء فقد أطلق الاسم على الموضع تكريماً للمرأة .
من العجب إذن أن أمر هذه الأمطار لم يكن واضحاً تماماً لهؤلاء القوم القدماء وقد كانوا يصدرون عن مثل هذه المبادىء ، خصوصاً وأن الكهنة كانوا يسجلون فى كتبهم المقدسه ويحفظون بشيء من التحنث كل ما يكشف عن معلومات مغربة . لقد كان ينبغى لهم أن يبحثوا — إن كانوا يبحثون على الاطلاق — المسألة التى لاتزال محل بحث إلى الآن ، وهى لماذا تسقط الأمطار صيفاً وليس شتاء فى أقصى الجنوب فى حين أنها لا تسقط فى إقليم طيبة وحول سينى ؟ ولكن ما كان لهذه الحقيقة وهى أن الفيضانات تتسبب عن الأمطار أن تبحث ولا كانت فى حاجة إلى شهود كالذين يذكرهم پوزيدونيوس (١) فهو يقول مثلاً أن كاليستنيس (٢) هو الذى قال

---

(١) ١٣٥ — ٥٠ ق . م . تقريباً . ولد فى أپاميا ودرس الفلسفة ثم عكف على البحث العلمى فى الولايات الغربية من البحر المتوسط وشمال أفريقية ثم استقر فى جزيرة رودس . وفى أواخر عام ٨٧ ق . م . أوفده أهل رودس للمفاوضة مع ماريوس فى روما فلم يفلح ، فكره ماريوس وهو زعيم شعبى ديمقراطى كرهاً شديداً تجلى فى اتجاهاته الاريستوقراطية فى كتاباته التاريخية كلها . ولقد كانت مدرسته ملتقى كثير من العظماء والمفكرين ومنهم الخطيب شيشرون والقائد الحربى پومبيوس . ولقد بلغ من إعجاب پوزيدونيوس بپومبيوس أن كتب رسالة فى فتوحاته فى الشرق . وهى الرسالة التى اعتمد عليها استرابون كل الاعتماد خصوصاً فيما روى من تاريخ موسى واليهود .
(٢) هو ابن أخى أرسطو ودرس عليه . وقد صحب الاسكندر الأكبر فى غزواته فى الشرق باعتباره مؤرخ الحملة . وقد حكم عليه بالموت سنة ٣٢٧ متهماً بالاشتراك فى مؤامرة لاغتياله .

بأن سبب الفيضان هو الأمطار الصيفية . وقد أخذ هذا رأيه عن أرستطاليس وأخذه هذا عن ثراسيالكيس الثاسوسي (وهو واحد من الطبيعيين الأول) وأخذه هذا عن آخر وأخذه هذا الأخير عن هوميروس الذي يسمى النيل « الصادر عن الله » .

« وراجعاً إلى مصر ، إلى النهر الصادر عن الله » .

ولأدع هذا الموضوع فقد تناوله الكثيرن ، ويكفي أن أذكر منهم الاثنين الذين كتبا في عهدنا كتاباً في النيل وهما يودوروس[1] وأريسطون[2] وهو من المشائين . فالمادة عندهما — باستثناء طريقة العرض — واحدة سواء من حيث الأسلوب أو تناول الموضوع . وإني على أية حال ، وقد أعوزتني النسخ المتقابلة لعقد معارضات ، قد قارنت الواحد بالآخر . أما من كان منهما الذي اغتصب أعمال الآخر فأمر قد يكتشف في معبد آمون . وإن

---

(١) كاتب مؤرخ اسكندري معاصر لاسترابون ، وهو يعد فيلسوفاً أفلاطونياً ، ولكنه يدين بالكثير من مبادئه للمدرسة الرواقية . وقد ضاعت كتبه ولعل استرابون يشير هنا إلى كتابه « في نهر النيل » .

(٢) رحالة جغرافي . استكشف سواحل البحر الأحمر الى باب المندب ، فقد أوفده بطليموس الثاني على رأس بعثة استكشافية لاستكشاف هذه البقاع ، وتأديب النبطيين بتحويل طريق قوافل البخور والعطور عنهم . ويظهر أن استرابون يعني أرسطون آخر غير هذا ، وإلا لما احتاج الأمر الى هذا العناء لمعرفة السابق واللاحق منهما .

يودوروس يتهم أريسطون ولكن الأسلوب أحرى أن يكون أسلوب أريسطون .

والآن فقد أطلق القدماء اسم مصر على الأرض المسكونة والتى يرويها النيل فقط ، مبتدئين من البقاع التى حول سينى حتى البحر . أما المتأخرون حتى عصرنا الحاضر فقد أضافوا إليها مما إلى الشرق كل ما يقع بين البحر الأحمر والنيل (الأيثيوبيون لا يستعملون البحر الأحمر مطلقاً) وأضافوا مايقع فى الناحية الغربية حتى الواحات ، وأضافوا على شاطىء البحر الجزء الواقع من المصب الكانوبى حتى كاتاباثموس [١] وإمارة القورينائيين . ذلك أن الملوك الذين تلوا بطليموس صاروا أقوياء إلى حد أنهم امتلكوا قورينة نفسها [٢] ، وضموا أيضاً قبرس [٣] إلى مصر . أما الرومان الذين خلفوهم فقد فصلوا هذه الولايات وقيدوا مصر فى حدودها الأولى . ويطلق المصريون اسم الواحات على الأراضى الآهلة التى تحيط بها صحراوات واسعة كالجزائر فى البحر ويوجد منها الكثير فى ليبيا ، وثلاث [٤] منها قريبة من مصر وتعدّ تابعة لها .

---

(١) السلوم .

(٢) لقد ضم بطليموس الثالث قورينة إلى مصر .

(٣) لقد تم غزو قبرس على يد بطليموس الأول نفسه .

(٤) هذه أول إشارة عند الجغرافيين القدماء للواحات المصرية .

هذا إذن ما نقوله فى وصف مصر بصفة مجملة مختصرة ، وسنذكر الآن أجزاءها كلاً على حدة ومميزاتها .

٦ — وحيث أن الجزء الأكبر والأهم من هذا الكتاب يدور على الاسكندرية وما يجاورها فلنبدأ بها. الشاطىء للمبحر نحو الغرب من بيلوزيوم حتى المصب الكانوبى حوالى ١٣٠٠ ستاد وهذه هى قاعدة المثلث الذى سميناه الدلتا . ومن هنا إلى جزيرة فاروس ١٥٠ ستاد أخرى ، وفاروس جزيرة قريبة جداً من الساحل وتكوّن باتصالها به مرفأ ذا مدخلين ، ذلك أن الشاطىء خليج يمتد منه فى البحر رأسان ، وبين هذين تقع الجزيرة التى تسد الخليج لأنها تمتد مستعرضة بحذاء الشاطىء ، أما طرفا فاروس فالشرقى منهما أقرب إلى الساحل وإلى الرأس الذى يحاذيه وهو يسمى رأس لوخياس[1] وهو يجعل الميناء ضيقة المدخل . وعلاوة على ضيق المجاز الواقع بينهما فهناك صخور أيضاً بعضها مغطى بالماء والبعض الآخر بارز فوقه . وهى تكسر طوال الوقت الموج الذى يندفع إليها من البحر ، وطرف الجزيرة نفسه صخرة يلاطمها الموج ، وعليها برج شُيِّد بطريقة عجيبة من الحجر الأبيض متعدد الطبقات واسمه كاسم الجزيرة وقد أقامه سوستراتوس الإكنيدى

(١) السلسلة .

صديق الملوك شكراً على سلامة البحارة كما يقول النقش [١] . ذلك أنه حيث أن الشاطىء كان خالياً من المرافىء وواطئاً من الجانبين وكان به أيضاً صخور وبعض مناطق ضحلة ، فقد احتاج الذين يبحرون من عرض البحر إلى علامة عالية واضحة حتى تسدد طريقهم إلى مدخل الميناء . وليس من السهل اجتياز المدخل الغربى أيضاً ، ولو أنه لا يتطلب مثل ذاك القدر من الحيطة . وهذا أيضاً يكوّن ميناءً آخر يعرف باسم يونوستوس [٢] وهو يقع تجاه الميناء الصناعى المغلق [٣] ، ذلك أن الميناء الذى مدخله بجانب برج فاروس المذكور هو الميناء العظيم . أما ذانك الميناءان فيقعان فى أقصى تجويفهما ملاصقين لهذا الميناء ، ويفصلهما عنه الجسر الذى يسمى الهيباستاديوم [٤] . وهذا الجسر بمثابة كبرى ممتد من الساحل إلى الجزيرة عند الجزء الغربى منها ، وبه منفذان

---

(١) فى بعض المخطوطات يوجـــد نص النقش « سوستراتوس الأكنيدى ابن دكسيفانيس للالهين المخلصين من أجل البحارة » والإلهان المخلصان هما إما بطليموس الأول وزوجه برنيقة أو الإلهان التوءمان كاستور وبولكس حاميا البحارة .

(٢) أى العود الحميد ، ولعلها سميت كذلك تيمناً باسم يونوستوس ملك سولى فى قبرص وهو صهر بطليموس الأول .

(٣) يعنى ميناء كيبوتوس أو الصندوق وقد تحدث عنه فى ١٠

(٤) جسر طوله سبعه ستاد كما يدل اسمه ، بنى فى عهد البطالمة الأول ، وقد كان يبدأ فى الجنوب من كوم الناضورة تقريباً وينتهى فى الشمال فى جنوب جزيرة فاروس بالقرب من شارع أبو وردة الحالى .

فقط إلى ميناء يونوستوس، وهذان المنفذان تمتد فوقهما قنطرتان ولم يكن هذا الجسر قنطرة موصلة إلى الجزيرة فحسب ، بل كان موصلا للمياه كذلك يوم كانت الجزيرة آهلة على الأقل . أما الآن فقد دمّرها قيصر المؤله (١) فى الحرب ضد السكندريين لأنها انضمت إلى الملوك (٢) . ومع ذلك فيسكنها قوم قليلون بالقرب من البرج وهم بحارة . أما عن الميناء الكبير فعلاوة على أن الجسر والطبيعة يغلقانه على وجه حسن ، فهو عميق إلى حد أن أكبر السفن ترسو عند الدَرَج . وهو إلى ذلك مقسم إلى موانىء عديدة. وحيث أن ملوك مصر السابقين كانوا راضين بما ملكوا وفى غير حاجة البتة إلى بضائع أجنبية ويكرهون كل من جابوا البحار وخصوصاً الإغريق (ذلك أن الإغريق لقلة الأرض عندهم كانوا سطاة وتواقين إلى أرض غيرهم) فقد أقاموا حامية فى ذلك المكان وأمروها أن تزود من يتجه إليه وأعطوها منزلا لسكناها ما يسمى براقوتيس وهى الآن ذلك الجزء من مدينة الاسكندرية الواقع فوق دار الصنعة، ولكنها كانت حينئذٍ قرية، ووهبوا المناطق المحيطة بالقرية للرعاة وقد كانوا هم كذلك قادرين على ذود القادمين من الخارج . ولكن عندما نزل الاسكندر هناك ورأى ملاءمة

---

(١) يعنى يوليوس قيصر .

(٢) أى إلى بطليموس الثالث عشر ٦٣ — ٤٧ ق . م .

المكان قرر أن يبنى المدينة على الميناء . ولقد وقعت حادثة عند تخطيط الأساس تُروى كفأل لما استتبعته من حسن الطالع فيما بعد ، ذلك أنه عند ما كان المهندسون يخططون حدَّ السور بالطباشير ، نفذ الطباشير ، وعندما قدم الملك أحضر الموظفون قدراً من الشعير الذى كان معدّاً للعمال ، وخططت الشوارع على الأغلب به . ويقال إن هذه الحادثة قد فسِّرت على أنها فأل حسن .

٧ — وإن ملاءمة الموقع لتأتى من وجوه متعددة فالمكان محفوف بمياه بحرين إذ من الشمال تحف به مياه البحر الذى يسمى البحر المصرى ، ومن الجنوب مياه بحيرة مارية وتسمى أيضاً بحيرة ماريوطيس . ويملأ النيل هذه البحيرة بوساطة قنوات عديدة من أعلا ومن الجوانب ، والبضائع التى تحمل اليها عن طريق هذه القنوات أكثر بكثير من التى ترد إليها عن طريق البحر حتى أن الميناء الواقع على البحيرة كان أغنى من الميناء البحرى . وحتى فى الميناء البحرى فان الصادرات من الاسكندرية أكثر من الواردات إليها ، ويستطيع المرء أن يلاحظ ذلك لو كان فى الاسكندرية أو فى ديكايارخيا[1] ورأى السفن التجارية فى وصولها وإقلاعها وقدر حمولتها وهى مبحرة من الاسكندرية وإليها . وعلاوة على قيمة البضائع المصدرة إليها من الناحيتين — أى إلى

(١) هى فى التاريخ الرومانى ميناء بوتيولى وهى الآن بوزولى بالقرب من نابولى وقد كانت فى القرن الأول ق.م من أكبر موانىء إيطاليا التجارية .

الميناء البحرى والميناء الواقع على البحيرة — فان طيب هوائها جدير بالملاحظة . وهذا أيضاً ناتج عن اكتنافها بالماء وعن ملاءمة موسم فيضان النيل . ذلك بأن سائر المدن التى تقع على بحيرات يكون هواؤها فى حـَّـارة الصيف ثقيلا خانقاً لأن البحيرات تتحول عند حوافيها إلى مستنقعات بفعل أشعة الشمس، ولذلك فعند ما يتصاعد كل هذا القدر من الرطوبة الطينية يكون الهواء المستنشق ملوثاً ويسبب أمراضاً وبائية ، أما فى الاسكندرية فعند ما يبدأ الصيف يكون النيل فائضاً فيملأ البحيرة ولا يترك شيئاً من المادة الطينية التى تجعل الهواء المتصاعد فاسداً وفى هذا الوقت أيضاً تهب الرياح الموسمية من الشمال من ناحية البحر الفسيح حتى إن السكندريين يمضون وقت الصيف على أحسن حال .

٨ — وإن شكل مساحة المدينة على هيئة الشملة ، طرفاها الطويلان هما اللذان تحف بهما المياه ، وقطرها حوالى ٣٠ ستاد ، أما القصيران فالبرزخان، وعرض كل منهما سبعة أو ثمانية ستاد ، ويزنقهـا البحر من جانب والبحيرة من الجانب الآخر . وتخترق المدينة كلها طرق صالحة لامتطاء الخيل واعتلاء المركبات ، منهـا طريقان عريضان جداً ويمتدان أكثر من بليثرون اتساعاً ويقطع أحدهما الآخر فى زوايا قائمة . وتضم المدينة ساحات عامة وقصوراً ملكية جميلة جداً تشغل ربع أو حتى ثلث مساحة المدينة كلها ،

ذلك بأنه كما كان كل واحد من الملوك يضيف شيئاً من الزينة إلى معالم المدينة العامة حبا فى الأبهة، فكذلك كان كل واحد يقيم لنفسه على نفقته قصراً علاوة على ما كان قائماً من قصور، حتى أصبحت الآن كما قال الشاعر :

وهناك القصر فوق القصر مشيَّد (١)

والقصور على أية حال متصلة بعضها ببعض وبالميناء. والمتحف أيضاً جزء من القصور الملكية وهو يضم ممشى ورواقاً خارجياً(٢) وبيتاً كبيراً فيه منتدى العلماء والمشاركين فى المتحف. وأموال هذه الجماعة مشتركة ولهم أيضاً كاهن يشرف على المتحف، كان الملوك يعينونه فيما مضى ويعينه قيصر الآن. والسيما (٣) — كما يسمونها — هى أيضاً جزء من القصور الملكية وهى الساحة التى كانت فيها قبور الملوك وقبر الاسكندر. ذلك أن بطليموس ابن لاجوس قد سبق برديكاس وانتزع منه جثة الاسكندر عندما كان ينقلها من بابل وعرج بها على مصر لطمعه وليستأثر

---

(١) هوميروس « الاوديسية » ١٧ ، ٢٦٦

(٢) ترجمنا الكلمة اليونانية « اكسدرا » بالرواق الخارجى معتمدين على وصف المهندس الرومانى فيتروفيوس لها فى كتابه « فى العمارة » ٥ ، ١١ أما سويداس فيعتبر الأكسدرا بناء قائماً برأسه.

(٣) سيما تعنى القبر، وفى بعض المخطوطات سوما ومعناها « الجثة » أى جثة الاسكندر الأكبر.

بمصر . وفضلا عن ذلك فقد هلك برديكاس [١] إذ قتله جنده عند ما هاجم بطليموس وحاصره فى جزيرة قاحلة جدباء . إذن فقد مات برديكاس بطعنات حراب جنده عندما هجموا عليه ، أما الأمراء الذين كانوا بصحبته وهم أريداس [٢] وأبناء [٣] الاسكندر وزوجه روكسانى فقد هرعوا إلى مقدونية . أما جثة الاسكندر فقد حملها بطليموس ودفنها فى الاسكندرية حيث لا تزال راقدة إلى الآن ، ولكنها ليست فى التابوت نفسه ، فالتابوت الذى ترقد فيه الآن من الزجاج [٤] ، أما التابوت الذى كانت مسجاة فيه من قبل فمن الذهب وقد نهب هذا التابوت الذهبى بطليموس الملقب « كوكيس » [٥] و « پارايساكتوس » [٦] بعد أن قدم من سوريا ولكنه طرد من فوره حتى أن حقه فى الاستيلاء كان عديم الجدوى له .

---

(١) لقد انتخب جند الاسكندر برديكاس وصيا على العرش . وهو الذى هاجم بطليموس فى ربيع عام ٣٢١ ق . م ولم يستطع عبور فرع دمياط واغتاله جنده فى معسكره .

(٢) فيلب أريداس أو أريدايوس ، أخ شقيق للاسكندر قتل على يد أوليمپياس سنة ٣١٧ ق . م .

(٣) لقد ولد ابن الاسكندر من روكسانى بعد وفاة والده ، وقتله كساندر سنة ٣١٦ ق . م .

(٤) لعله يعنى الألابستر .

(٥) الأشقر . (٦) الدخيل .

٩ — وفى الميناء الكبير عند مدخله على اليمين جزيرة فاروس وبرجها وفى الناحية الأخرى توجد الصخور ورأس لوخياس وعليه قصر ملكى . وتقابل المبحر إلى الداخل إلى اليسار القصور الملكية الداخلية وهى متصلة بالقصور التى على رأس لوخياس وهى تضم أجنحة عديدة مختلفة الألوان وأحراشاً مقدسة ، ويقع فيما يلى هذه القصور الميناء المحفور المخفى وهو خاص بالملوك وكذلك رودس الجنوبية [١] وهى جزيرة تقع فى مقابلة الميناء المحفور وهى تضم قصراً كذلك وميناء صغيراً ، وقد سموها كذلك كأنها نظيرة لرودس . ويقع فيما يلى هذا الميناء المسرح ثم البوزيديون وهو أشبه بكوع ممتد من المكان المسمى السوق وهو يضم معبداً لبوزيدون . ولقد أضاف أنطونيوس إلى هذا النتوء جسراً ممتداً بعض الشيء فى منتصف الميناء وابتنى على رأسه جناحاً ملكياً هو الذى سماه تيمونيوم [٢]. وقد كان هذا آخر عمل أنجزه بعد أن تخلّى عنه أصدقاؤه وقفل إلى الأسكندرية بعد هزيمته فى أكتيوم [٣]. وقد أراد لنفسه أن يعيش بقية عمره على غرار

---

(١) لقد انخفضت جزيزه رودس الجنوبية أو انتيرودس فى العصور الوسطى وغطتها المياه .

(٢) تيمون آثينى من القرن الخامس قبل الميلاد ، ساءه عقوق أصدقائه فكره الناس واعتكف وقد وردت قصته فى « سيرة انطونيوس » ٦٩ لبلوتارخوس .

(٣) وقعت سنة ٣١ ق.م

تيمون ونوى أن يمضى حياته فى عزلة عن كل هؤلاء الأصدقاء . ويلى ذلك القيصريوم [1] والسوق ومخازن الاستيداع وبعدها دار الصنعة الممتده إلى الهيباستاديوم . ولنكتف بهذا القدر فى وصف الميناء الكبير وما يحيط به .

١٠ — ويلى ذلك ميناء يونوستوس بعد الهيباستاديوم ، وفيما وراء هذا الميناء يوجد الميناء المحفور الذى يسمونه أيضاً الصندوق (كيبوتوس) وهذا أيضاً يشمل دور صناعة السفن . وفيما وراء هذا إلى الداخل توجد قناة صالحة للملاحة تمتد إلى بحيرة مريوطيس ولا يبقى وراء القناة إلا جزء صغير من المدنية وتليه ضاحية نيكوپوليس [2] التى يوجد بها كثير من الحدائق والمقابر والاستراحات المعدة لتحنيط الجثث . وفى الجانب الداخلى من القناة يوجد السيرابيوم [3] ومعابد كثيرة أخرى قد هجرت بسبب تشييد المبانى الجديدة فى نيكوپوليس ففيها مثلا المدرج (الاستاديوم)

---

(١) بدأت بناءه كليوباتره تكريماً لأنطونيوس ، ثم أكمل بناؤه بعد فتح الرومان تكريماً للأمبراطور أغسطس ، كان موقعه أمام محطة الرمل الحالية .

(٢) أى مدينة النصر ، بناها أغسطس فى المنطقة الواقعة بين شاطىء مصطفى باشا وجليمونوپولو تخليداً لذكرى انتصاره على جيوش كليوباترة وأنطونيوس

(٣) نشأت عبادة سيرابيس فى منف ، وجعلها بطليموس الأول عبادة رسمية فى الاسكندرية وكان السيرابيوم واحداً من عجائب الدنيا القديمة ، وقد صمم بناءه المهندس پارمينيسكوس .

وقد كانت المباريات التى تعقد كل خمس سنوات تقام هناك . أما المنشئات القديمة فقد أهملت . وقصارى القول فالمدينة مليئة بالنصب والمعابد ولكن أبدعها النادى الرياضى (الجمنيزيوم) الذى يحتوى على أروقة تربو على الاستاد طولاً . وتوجد فى وسط المدينة كل من المحكمة والأحراش المقدسة . وهناك أيضاً البانيوم (معبد پان [1]) وهو نهد من الأرض من صنع الانسان مخروطى الشكل كشجرة البلوط يشبه التل الصخرى والصعود إليه بطريق حلزونى ، ويمكن من قمته رؤية المدينة كلها واقعة تحته من جميع النواحى . ويمتد الطريق العريض[2] من نيكوپوليس ماراً بالجمنيزيوم إلى البوابة الكانوبية ويلى ذلك ما يسمى بحلبة السباق (هيپودروموس) والشوارع الأخرى الموازية الممتدة إلى القناة الكانوبية . ويصل المرء بعد اختراق حلبة السباق إلى نيكوبوليس ولها فرضة على البحر لا تقل حجماً عن مدينة ، وهى على بعد ٣٠ ستاد من الأسكندرية ولقد عظم قيصر المهيب هذا المكان لأنه هزم هناك الذين خرجوا مع أنطونيوس لملاقاته . وبعد أن أخذ المدينة فى هجمته الأولى اضطر

---

(١) إله يونانى يرعى الرعاة وأغنامهم وهو ابن زيوس أو هرمس .

(٢) هو الطريق الكانوبى ومكانه الآن شارع فؤاد الأول وامتداده فى شارعى سيدى المتولى وإسحاق النديم .

أنطونيوس أن يبخع نفسه (١) وأكره كليوپاترة إلى أن تسلم إليه وهى فى قيد الحياة وبعد زمن قليل بخعت هى الأخرى نفسها فى السجن سراً بلذعة حية أو عقار سام ، ففيها قولان . ونتج عن ذلك أن انحلت مملكة أسرة لاجوس بعد أن خالت سنين عدداً .

١١ ـ ذلك أن بطليموس بن لاجوس(٢) خلف الاسكندر ، وخلف فيلادلفوس (٣) بطليموس وخلف هذا يورجيتيس (٤) ثم فيلوپاتور(٥) بن أجاثوكليه ثم إبيفانيس (٦) ثم فيلوميتور (٧) ، الولد خلفاً لأبيه دائماً . ولكن الذى خلف فيلوميتور أخ له هو

---

(١) سنة ٣٠ ق. م.

(٢) بطليموس الأول الملقب بالمخلص (سوتير) ٣٧٦ — ٢٨٢ ق. م

(٣) بطليموس الثانى الملقب « بالمحب لأخيه » ٣٠٨ — ٢٤٦ ق. م حكم فى ظل أبيه منذ ٢٨٥ ق.م . ثم حكم منفرداً من ٢٨٢ ق. م .

(٤) بطليموس الثالث الملقب « بالمصلح » (يورجيتيس) ٢٨٨ ـ ٢٢١ق.م

(٥) بطليموس الرابع الملقب « بالمحب لأبيه » (فيلوپاتور) ٢٤٤ ـ ٢٠٥ق.م حكم بعد موت أبيه سنة ٢٢١ ق . م

(٦) بطليموس الخامس الملقب « بالمتجلى » (إبيفانيس) ٢١٠ — ١٨٠ حكم فى ظل أبيه منذ ٢١٠ ق . م ومنفرداً من ٢٠٥ ق . م

(٧) بطليموس السادس الملقب « بالمحب لأمه » (فيلوميتور) ١٨٦ — ١٤٥ تولى الحكم منذ ١٨٠ ق . م فى ظل أمه التى ماتت فى ١٧٦ ق . م

يورجيتيس الثانى [١] الذى يكنّى أيضاً بفوسكون [٢] وخلف هذا بطليموس الملقب لاثوروس [٣] وهذا خلفه أوليتيس [٤] المعاصر لنا الذى كان والد كليوپاتره . وكل هؤلاء من جاء منهم بعد بطليموس الثالث قد أفسدهم الترف فساسوا البلاد على وجه سيء ولكن أسوأهم الرابع والسابع وأوليتيس الأخير . وقد كان هذا فضلا عن سائر موبقاته مولعاً بمصاحبة الجوق بالمزمار وكان يزهى بهذا

---

(١) هو بطليموس الثامن الملقب « بالمصالح الثانى » ١٨٢ — ١١٦ وهو أخو بطليموس السادس حكم مشتركا مع أخيه من ١٧٠ — ١٦٤ ق . م ومنفرداً ١٦٤ — ١٦٣ ق.م وكان ملكا على قورينة حسب من ٢٦٣ — ٢٤٥ ق . م ثم حكم مصر منفرداً من ١٤٥ إلى أن مات .

ويلاحظ أن استرابون يغفل ذكر بطليموس السابع « فيلوپاتور الصغير » ابن بطليموس السادس وقد حكم حوالى سنة بعد موت أبيه ثم قتله عمه بطليموس الثامن سنة ١٤٤ ق . م

(٢) البطين .

(٣) هو بطليموس التاسع الملقب « بالمخلص ». (سوتير) والمكنى بلاثوروس « حمص » ١٤٢ — ٨١ ق . م . وهو الابن الأكبر لبطليموس الثامن ، وقد اضطر إلى اشراك أخيه معه فى الحكم منذ ١١٠ ق . م

(٤) بطليموس الثانى عشر ابن بطليموس التاسع ، وكنيته أوليتيس أى « الزمار » عاش ١٠٨ — ٥١ ق . م وتولى العرش سنة ٨٠ ق . م وقد اضطر إلى الفرار من مصر سنة ٥٨ ق . م . وأعيد إلى عرشه سنة ٥٥ ق . م

ويلاحظ أن استرابون أغفل ذكر كل من بطليموس العاشر الملقب « بالاسكندر » وهو أخو بطليموس التاسع ١٤٠ — ٨٨ ق . م ، وبطليموس الحادى عشر الملقب « بالاسكندر الثانى » ١٠٠ — ٨٠ ق . م وهو ابن بطليموس العاشر .

إلى حد أنه كان لا يحجم عن إقامة المباريات فى القصر الملكى ، والتقدم لمنافسة المتبارين ، وقد طرده السكندريون لذلك . ولما كان له ثلاث بنات إحداهن وهى الكبرى شرعية فقد نصبوها ملكة [1] ، أما أبناه وقد كانا طفلين فقد أقصوهما عن الحكم كلية فى ذاك الحين . ولما استوت ابنته على العرش أرسلوا فى طلب زوج لها من سوريا هو المدعو كيبيوساكتيس [2] وكان يدعى أنه من سلالة الملوك السوريين . أما الملكة فقد قتلته ولما تنقض بضعة أيام، إذ لم تحتمل جفاءه وغلظته ،وجاء بدلا منه أرخيلاوس وقد ادعى هو الآخر أنه إبن ميثريداتيس يوپاتور، وهو فى الحقيقة ابن أرخيلاوس الذى حارب ضد سيلا وقد كرَّمه الرومانيون بعد ذلك، وكان جد آخر ملك للكبادوكيين وهو معاصر لنا وكان كاهن كومانا فى پونتوس وقد كان فى ذاك الحين يمضى وقته مع جابينوس [3] آملا أن يشترك معه فى الحرب ضد البارثيين. وقد أحضره بعضهم خفية عن جابينوس إلى الملكة ونصِّب ملكا [4].

---

(١) هى برنيقة وقد حكمت من ٥٨ — ٥٥ ق ٠ م وقتلت بأمر أبيها عندما استعاد عرشه سنة ٥٥ ق ٠ م

(٢) تاجر الملوحة ٠

(٣) حاكم ولاية سوريا أوفده پومپيوس بعد مؤتمر لوكا فى مايو سنة ٥٦ ق٠م لتثبيت بطليموس « الزمار » على عرش مصر ٠

(٤) لم يحكم سوى ستة أشهر قتل بعدها فى حربه ضد جابينيوس ٠

وفى هذه الأثناء عندما استقبل پومبيوس العظيم أوليتيس بعد أن وصل إلى روما ، زكاه عند مجلس الشيوخ وعمل على إعادته إلى عرشه، وهلاك[1] أكثر أعضاء البعثة وكانوا مائة، وهم الذين كانوا ضده، وكان ضمن هؤلاء ديون الفيلسوف الأكاديمى إذ كان رئيس البعثة . ولما أعيد بطليموس إلى عرشه بوساطة جابينوس قتل أرخيلاوس وابنته ، ولكنه مات بالمرض وقد أضاف أمداً غير طويل إلى مدة حكمه . وخلف ابنين وابنتين كبراهما كليوباتره، ونصب السكندريون أكبر الابنين وكليوباتره ملكين . ولكن حاشية الغلام أثارت فتنة وطردت كليوباتره ، فأبحرت مع أختها إلى سوريا . وفى هذه الأثناء جاء پومبيوس العظيم هارباً من پاليفارسالوس [2] إلى بيلوزيوم وجبل كاسيوس فقتله أنصار الملك غيلة . وعندما قدم قيصر قتل الغلام، واستدعى كليوباتره من المنفى ونصبها ملكة على مصر . وعين أخاها ليشترك معها فى الملك ، ولو أنه كان صغير السن جداً . وبعد موت قيصر وموقعة فيليپى [3] عبر أنطونيوس إلى آسيا وكرم كليوباتره تكريماً كبيراً

---

(١) شاع فى روما أن قتل أكثر أعضاء البعثة المصرية كان بتحريض بطليموس الزمار (راجع ، شيشرون فى دفاعه عن كايليوس ، ٢١)

(٢) هى فارسالوس ، مدينة فى تساليا ، شهدت هزيمة پومبيوس على يد قيصر فى صيف عام ٤٨ ق . م

(٣) سنة ٤٢ ق . م

حتى إنه اختارها زوجاً له وأنجب منها أبناء، وخاض موقعة أكتيوم معها وفر معها، وبعد ذلك اقتفى أغسطس قيصر آثرهما وقضى عليهما ووضع حداً لما كانت تعانيه مصر من أداة الحكم الغاشمة .

١٢ — ومصر الآن ولاية تدفع جزية كبيرة ، ويحكمها رجال حصفاء هم الحكام الذين يبعثون إليها على التوالى، ومن يبعث يكون له فيها مقام الملك . ويأتى بعده موزع العدل وهو صاحب الكلمة العليا فى أكثر القضايا ، وآخر يسمى ناظر الخاصة وهو الذى يعنى بالأشياء غير المملوكة والتى ينبغى أن تكون من نصيب قيصر . ويصاحب هؤلاء موالى قيصر وحشمه، ويوكل إليهم من الشئون ما هان عن هذه . ويوجد فى مصر ثلاثة فيالق حربية أحدها مرابط فى مدينة الاسكندرية والآخران فى القطر . وتوجد غير هذه تسع كتائب رومانية ، ثلاث منها فى المدينة ، وثلاث على الحدود الايثيوبية فى سينى، وثلاث فى سائر القطر . وهناك أيضاً ثلاث فرق من الخيالة، وهى موزعة كذلك على المراكز الهامة . أما عن الحكام الوطنيين فى المدينة فهناك المترجم وكان يتشح بالملابس الأرجوانية وله امتيازات موروثة وحق الاشراف على مصالح المدينة . وهناك المسجل، وقاضى القضاه ،والرابع هو قائد العسس الليلى . ولقد كانت هذه الوظائف قائمة فى عهد الملوك ، ولكن حيث أن الملوك كانوا يسيئون الحكم ، فقد ضاع رخاء المدينة من

جراء الظلم . وعلى أى حال ، فان پوليبيوس الذى كان فى المدينة قد ساءته الحالة التى كانت سائدة فيها حينئذ ، وهو يقول إن المدينة كان يسكنها ثلاث فئات ، الأولى المصريون وهو العنصر الوطنى وهم حادو الطباع وغير مدنيين ، وفئة الجند المرتزقة وقد كانوا غلاظاً كثيرين لا يسهل انقيادهم ، (فقد كانوا يبقون - وفقاً لتقليد قديم - جماعة من الأجانب تحت السلاح وهؤلاء تعودوا أن يحكموا لا أن يُحكموا نتيجة لضعف الملوك) والفئة الثالثة من أهل الأسكندرية ، وما كان هؤلاء آخذين بأسباب الحياة المدنية بشكل واضح لهذه الأسباب نفسها ، ولكنهم كانوا مع ذلك أفضل من الآخرين ، فمع أنهم كانوا خليطاً إلا أنهم كانوا يونانى الأصل يحافظون على العرف المشترك بين اليونانيين . ولكن هذه الفئة من الشعب قد فنيت على يد پورجيتيس فوسكون الذى جاء پوليبيوس فى عهده إلى الاسكندرية (فقد كان فوسكون هذا يلاقى معارضة، وكثيراً ما كان يعرّض الشعب لبطش الجند فأهلكه) ولما كانت هذه هى الأحوال السائدة فى مصر فقد قال پوليبيوس لم يبق للمرء إلا أن يردد قول الشاعر :

(١) عاش من ٢٠٢ — ١٢٠ ق . م . ولد فى ميجالوبوليس فى أركاديا وزار مصر سفيراً سنة ١٨٠ ق . م وزار روما وأعجب بحياتها الدستورية ، وافتتن بعظمتها الحربية . وكتب كتاباً « فى التاريخ العام » من ٢٢٠ — ١٤٥ ق . م . بقيت منه الأجزاء الخمسة الأولى .

الذهاب إلى مصر رحلة طويلة شاقة [1]

١٣ — هكذا كانت الحال أيضاً فى عهد الملوك المتأخرين إن لم تكن أسوأ . ولكن الرومان قد قوّموا بقدر ما استطاعوا ، كما يجرى القول ، كثيراً من هذه الأمور بعد أن نظموا المدينة كما وصفت، وبعد أن عينوا فى طول البلاد موظفين يسمون مفتشون حربيون، وحكام مقاطعات ، ورؤساء عشائر، من الذين عدوا أهلاً لتدبير الأمور غير الجسيمة ، وأكبر مميزات هذه المدينة أنها المدينة الوحيدة فى مصر كلها ذات الموقع الصالح لغرضى التجارة البحرية بسبب جودة الميناء ، والتجارة الداخلية بسبب أن النهر يحمل وينقل بسهولة كل البضائع إلى هذا الموقع ولذلك فهو أكبر سوق فى المعمورة . وقد يسمى المرء هذه المميزات فضائل المدينة .

أما عن خراج مصر فقد تحدث عنه شيشرون فى إحدى خطبه [2] وقال إن خراجاً مقداره ١٢٥٠٠ طالنتا كانت تدفع سنوياً إلى أوليتيس أبى كليوباترة . فإذا كان من حكم المملكةَ أسوأ الحكم وأكثره إهمالا قد حصَّل مثل هذا المبلغ فكم ينبغى أن نقدر الدخل الآن وهو يدبر بكل هذه العناية ، وبعد أن زادت التجارة

(١) هوميروس ، « الأوديسية » ٤ ، ٤٨٣ .

(٢) لا توجد عبارة شيشرون فى أى من خطبه المعروفة لنا الآن . والأرجح أن الخطبة التى يشير اليها قد ضاعت .

الهندية والتروجلوديتية إلى هذا الحد ؟ ففيما مضى ما كانت عشرون مركباً لتجرؤ على الإيغال فى الخليج العربى [1] إلى حدّ أن تشرف على ما وراء المضايق . أما الآن فإن سفناً كبيرة ترسل إلى الهند وإلى حدود أيثيوبية ، وتُستورد منها إلى مصر أغلى البضائع ، ومنها تصدر بالتالى إلى البقاع الأخرى . وبذلك تجبى عليها مكوس مضاعفة واردة وصادرة . والمكوس ثقيلة على البضائع الثمينة . والحق أن لها احتكارات أيضاً . ذلك أن الإسكندرية وحدها ليست محط كل هذه البضائع على الغالب فحسب ، بل هى أيضاً مركز تصديرها للخارج . هذا إلى أن المرء ليستطيع أن يفهم بسهولة هذه المميزات الطبيعية إن هو ساح حول المدينة وزار أولا ذلك الجزء من الساحل الذى يبدأ من كاتا باثموس ذلك أن مصر تمتد إلى هناك . أما ما وراء ذلك فقورينة والبرابرة المتاخمون وهم المارماريديون [2] .

١٤ — والمسافة من كاتا باثموس إلى پارايتونيوم [3] للمبحر فى خط مستقيم ٩٠٠ ستاد وهى مدينة وميناء كبير إتساعها ٤٠ ستاد. ويسمى البعض هذه المدينة پارايتونيوم ويسميها البعض الآخر

(١) يعنى البحر الأحمر .

(٢) اسم عام للقبائل الليبية الرحل وقد اضطر الامبراطور اغسطس إلى تأديبهم بالقرب من طبرق .

(٣) مرسى مطروح .

أمونيـــا ، وبينهما تقع قرية المصريين ورأس أينيسيسفيرا (١) والصخور التينيدارية (٢) وهى أربع جزيرات تكون ميناء، ثم يلى ذلك رأس دريبانوم (٣) ، وأينيسيبيا (٤) وهى جزيرة ذات ميناء ، وآبيس (٥) وهى قرية المسافة منها إلى پاراپتونيوم ١٠٠ ستاد، وإلى معبد آمون (٦) مسيرة خمسة أيام . والمسافة من پاراپتونيوم إلى الاسكندرية حوالى ١٣٠٠ ستاد ، وتقع بينهما أولا رأس من الحجر الأبيض يسمى رأس ليوكى (٧) ثم ميناء فوينيكوس (٨) ثم قرية بنيجيوس (٩) ثم جزيرة بيدونيا (١٠) وهى ذات ميناء ثم أنتيفراى (١١) وهى على مسافة يسيرة من البحر ، وهذه المنطقة كلها بغير نبيذ طيب إذ أن الدن يدخله من ماء البحر أكثر مما يدخلة

---

(١) سيدى برانى .

(٢) هى الصخور الأشيليه ، ويقول بطليموس الجغرافى أنها ثلاث .

(٣) أى المنجل وقد تـكون رأس جرجوب .

(٤) لعلها بالقرب من رأس أبو لاهو .

(٥) زاوية أم الرخم بالقرب من مرسى مطروح .

(٦) فى واحة سيوة .

(٧) رأس الحكمة .

(٨) لعلها بالقرب من بئر موسى صالح .

(٩) مرسى أبو سمرة .

(١٠) البحرين .

(١١) بالقرب من رأس جبيصة .

من النبيذ ، وهم يسمون هذا النبيذ « الليبي » ويتعاطاه والجمة أيضاً أكثر فئة السكندريين . ولكن أنتيفراى هى أكثر البلاد تعرضاً للسخرية . ثم يلى ذلك ثغر دريس (الجلد) ، وسمى كذلك بسبب صخرة قريبة سوداء تشبه الجلد ، ويسمون المنطقة المجاورة زيفيريوم أيضاً ، ثم نصل إلى ميناء آخر هو ليوكاسبيس[1] (الدرع الأبيض) وموانىء أخرى عديدة ، ثم نصل إلى كينوس سيما (نصب الكلب) ثم إلى تابوسيريس وهى ليست على البحر وتحي عيداً كبيراً (وهناك تاپوسيريس أخرى فى الناحية الأخرى من المدينة وتبعد عنها كثيراً) وبالقرب منها يوجد موقع صخرى على البحر ، ويقصد هذا الموقع أيضاً جماهير من الشبان طوال فصول السنة . ويليها بلينثيني وقرية نيكياس وخِّرونيسوس وهو معقل قريب من الاسكندرية ونيكروپوليس على مسافة ٧٠ ستاد . وبحيرة ماريا التى تمتد حتى هذا الموقع عرضها أكثر من ١٥٠ ستاد وطولها يقل عن ٣٠٠ ستاد وهى تضم ثمان جزر ، وكل المنطقة التى حولها آهلة بالسكان وإن هذه المنطقة ذات نبيذ طيب حتى أنه ليصفى ليعتق .

١٥ — وينبت فى المستنقعات والبحيرات المصرية البردى

---

(١) مرسى الحمرة .

والبقل المصرى الذى تتخذ منه القيبوريوم (الكثوس) وسوقه متساوية الطول تقريباً تبلغ حوالى عشرة أقدام. ولكن البردى ساق خالص وله فى القمة رأس، أما البقل المصرى فيخرج أوراقاً وأزهاراً فى أجزاء كثيرة، وثمرته أيضاً شبيهة بالبقل عندنا ولكنه يختلف عنه فى الحجم والطعم؛ وعلى ذلك فحقول البقل المصرى تتيح منظراً جميـــلا وبهجة للذين يهوون أن يقيموا فيها الولائم. وهؤلاء يقيمون الولائم فى قوارب كالحجرات وهم يدخلونهـا فى أحراش البقـــل ويستظللون بأوراقه. والأوراق كبيرة جداً حتى إنها لتتخذ بمثابة أكواب ودنان. إذ أن بها ذلك التجويف الغائر اللازم لهذا الغرض، والحق إن الاسكندرية مليئة الحوانيت بها، حيث تتخذ هذه الأوراق أقداحاً. والحقول تستمد أحد موارد دخلها منها أى من الأوراق، هذا إذن هو البقل المصرى. أما البردى فلا ينبت بمقدار كبير هنـا لأنه لا يزرع ولكنه ينبت بمقدار كبير فى الأجزاء السفلى من الدلتا. وأحد نوعيه ردىء، والآخر حسن وهذا هو الهيراطيقى [1]. وإن بعض من ابتغوا زيادة دخلهم هنا أيضاً قد قلدوا الحيلة اليهودية التى اكتشفها اليهود فى البلح وخصوصاً

(١) أى المستعمل فى الأغراض الدينية وقد سمى فيما بعد الأغسطى تكريماً للامبراطور أغسطس.

الكاريوتى وفى الباسم . فهم لا يتركون البردى ينبت فى أماكن كثيرة ، ويضعون له ثمناً كبيراً لقلته ، وهكذا يزيدون دخلهم مع أنهم يضرون بالصالح العام .

١٦ – وعلى يمين الخارج من البوابة الكانوبية توجد القناة التى تمتد من البحيرة إلى كانوبوس . والذى يبحر بطريق هذه القناة لا يصل إلى سخيديا [١] فحسب ، بل إلى النهر العظيم وإلى كانوبوس [٢] كذلك ، ولكنه يصل أولا إلى إليوسيس [٣] وهى ضاحية قريبة من الأسكندرية ومن نيكوپوليس ، واقعة على الفرع الكانوبى نفسه ، وبها منازل وشرفات للذين يبغون العبث من الرجال والنساء ، وهى مقدمة الحياة الكانوبية والفجور هناك.

فإذا تقدم المرء قليلا من إليوسيس إلى اليمين توجد القناة التى تؤدى إلى سخيديا . وسخيديا تبعد عن الأسكندرية بمقدار ٤ سخينوس وبها مرسى المراكب ذات الغرف التى يبحر عليها الحكام مصعدين إلى المنطقة العليا ، وهناك أيضا محط مكس على البضائع الهابطة إليها من أعلا والقادمة من أسفل ، ومن أجل ذلك أقيمت قنطرة (سخيديا) على النهر ومنها اشتق اسم المدينة . وفيما يلى القناة التى تؤدى إلى سخيديا تكون المرحلة التالية إلى

(١) أى القنطرة ، ولعلها كوم النشو شرق كفر الدوار .
(٢) كوم سمعدى بالقرب من «أبو قير» .
(٣) بالقرب من النزهة .

كانوبوس موازية للساحل الممتد من فاروس إلى الفرع الكانوبى لأن شريطاً ضيقاً من الأرض يمتد بين البحر والقناة ، وعلى هذا الشريط تقع ، فيما وراء نيكوبوليس ، تاپوسيريس الصغيرة (١) ، وكذلك زيفيريوم وهو رأس يضم معبداً لأفروديتى أرسنوى . ويقال إنه فى العصر القديم كانت توجد هنا مدينة ثونيس (٢) وقد سميت باسم الملك الذى استقبل مينيلاوس وهيلانة بترحيب ، وعلى كل حال فان الشاعر يتحدث عن عقاقير هيلينة قائلاً :

« العقاقير الطبية التى أعطتها لها پوليدامنة زوج ثونيس »(٣)

١٧ — وكانوبوس مدينة تقع على مسافة ١٢٠ ستاد من الاسكندرية للسائر على الأقدام ، وقد سميت باسم كانوبوس ربان مينيلاوس الذى مات هناك . وهى تضم معبد سيرابيس الذى يعظم بتقديس بالغ وهو يهب الشفاء ، حتى أن أشهر الرجال يؤمنون به ويبيتون فيه هم أو من ينوبون عنهم . ويسجل البعض الأدوية ويسجل آخرون معجزات الوحى هناك . ويقابل كل هذا الورع جماهير العابثين الذين يهبطون من الاسكندرية بطريق القناة ، ذلك أنها تعج كل يوم وكل ليلة بجماعة من الرجال والنساء فى القوارب يعزفون الناى ويرقصون

---

(١) المدرة .

(٢) يقول ديودور الصقلى ١ ، ١٩ « ويصب النهر فى البحر عند بلدة تسمى ثونيس ، وقد كانت هذه ثغر مصر التجارى فى العصر القديم » .

(٣) هوميروس الأوديسية ، ٤ ، ٢٢٨

سادرين فى غاية الفجور ، وتعج بأهل كانوبوس نفسها ، وهؤلاء يملكون بيوتاً واقعة على القناه ، معدة لمثل هذا العبث واللهو .

١٨ — ويلى كانوبوس هيراقليوم [١] وهى تحتوى على معبد لهرقل ثم يأتى الفرع الكانوبى ومبدأ الدلتا . وعلى يمين الفرع الكانوبى توجد مقاطعة مينيلاوس ، وقد سميت كذلك اشتقاقاً من اسم أخى بطليموس الأول وليس وأيم الله من اسم البطل مينيلاوس كما يدَّعى بعض الكتاب ومنهم ارتميدوروس [٢]. وبعد الفرع الكانوبى يأتى الفرع البولبيتى ثم السبينيتى والفاتنيتى وهو الثالث فى الضخامة بالمقارنة بالفرعين الأولين اللذين يكونان حدود الدلتا ، لأنه يتفرع فى الداخل غير بعيد من رأس الدلتا ، والفرع المنديسى قريب جداً من الفرع الفاتنيتى ويليه التانيسى وأخيراً الفرع البيلوزى . وبين هذه المصبات توجد مصبات ليست بذات أهمية حيث إنها مصبات وهمية . وللمصبات مداخل لا تسمح بدخول السفن أو المراكب الكبيرة بل الزوارق فقط بسبب الضحولة والمستنقعات . والسوق الكانوبية تستعمل بصفة

(١) الضاية الحمراء أو الكوم الأحمر .

(٢) جغرافى من أهل إفسوس نبغ حوالى سنة ١٠٠ ق ٠ م ، ساح حول شواطىء البحر المتوسط واستقر فى الاسكندرية حيث كتب إحدى عشرة رسالة فى الجغرافيا كانت مرجعاً لمن تلاه من الجغرافيين .

أصلية كسوق للبضائع أما ثغور الاسكندرية فقد سدت كما أسلفت القول .

وبعد الفرع البولبيتى يمتد إلى مسافة طويلة رأس واطىء رملى يسمى أجنوكراس (قرن الصفصاف) ، ويلى ذلك برج برسيوس وقلعة الميليسيين ، ذلك أنه فى عهد بسماتيك [1] الذى عاصر كياكساريس [2] الميدى ، أبحر الميليسيون بثلاثين مركباً ورسوا فى الفرع البولبيتى ونزلوا هناك وابتنوا المعقل السالف الذكر [3] وبعد ذلك بردح من الزمان صعدوا فى النهر إلى مقاطعة سايس وبعد أن هزموا مدينة إيناروس [4] فى موقعة بحرية أنشأوا مدينة نوقراطيس [5] فوق سخيديا بقليل . ثم بعد قلعة الميليسيين إذا تقدم المرء نحو الفرع السبينيتى توجد بحيرات تسمى إحداها بوطية نسبة إلى مدينة بوطوس [6] . ثم مدينة سبينيتوس [7]

---

(١) هو مؤسس الأسرة السادسة والعشرين فى سايس بعد طرد الاثيوبيين بمساعدة المرتزقة من الأيونيين والكاريين سنة ٦٦٤ ق.م تقريباً .

(٢) اكسركسيس بن دارا حكم الفرس من ٤٨٥ — ٤٦٥ ق . م

(٣) راجع هيرودوت ٢ ، ١٥

(٤) راجع ديودور الصقلى ١ ، ٦٤

(٥) كوم جيف بالقرب من نقراش

(٦) كوم المراعين بالقرب من إبطو

(٧) سمنود

وسايس [1] عاصمة مصر السفلى وفيها تعبد أفروديتى . وفى معبدها يوجد قبر بسماتيك وبالقرب من بوطوس توجد هرموپوليس الواقعة فى جزيرة وفى بوطوس يوجد وحى ليطو [2] .

١٩ — وفى الداخل فيما يلى المصبين السبينيتى والفاتنيتى تقع كسويس [3] وهى جزيرة ومدينة فى المقاطعة السبينيتية ، وتوجد هرموپوليس وليكوپوليس ومنديس [4] حيث يعبدون پان [5] ويعبدون من الحيوان التيس ، وهنا كما يقول بينداروس [6] تتصل التيوس بالنساء .

« منديس على مقربة من سيف البحر » .

« ناصية النيل القصية » .

« حيث تتصل التيوس التى تعلو المعزى بالنساء » .

وبالقرب من منديس توجد ديوسبوليس [7] والبحيرات

---

(١) صا الحجر

(٢) راجع هيرودوت ٢ ، ٥٩ و ١٥٥

(٣) سخا .

(٤) تل الربع فى الجنوب الشرقى من المنصورة .

(٥) الإله مين ويقول هيرودوت ٢ ، ٤٦ « وفى مصر يسمى الماعز وپان كلاهما بمنديس » .

(٦) شاعر غنائى فحل ولد بالقرب من مدينة طيبة فى بلاد اليونان ومات فى الثمانين من عمره فى مدينة أرجوس .

(٧) البلامون ، والكلمة اليونانية معناها مدينة ذيوس .

المحيطة بها ومدينة ليونتوبوليس (١) ثم على مسافة بعيدة توجد بوسيريس (٢) فى مقاطعة بوسيريس وكذلك كينوسبوليس (٣)

ويقول إراتوستنيس أن ذود الأجانب عرف شائع بين البرابرة ، ولكن المصريين يُتّهمون بهذا بسبب الأساطير التى تحكى حول بوسيريس (٤) فى مقاطعة بوسيريس ، حيث أن الكتاب المتأخرين كانوا يميلون إلى رمى سكان هذه المنطقة بقلة الضيافة ، ولو أنه بحق الله ما كان هناك ملك أو طاغية باسم بوسيريس ، هذا إلى أن قول الشاعر شائع إذ يقول :

« الذهاب إلى مصر رحلة طويلة شاقة »

وإنَّ انعدام الموانئ قد دعَّم هذا الرأى كثيراً ، كما دعمه أن الميناء الواقع عند فاروس لا يُنال، إذ يحرسه رعاة قرصان كانوا يهاجمون من يرسون هناك . وكان القرطاجنيون كذلك ـ فيما يقول ـ

---

(١) كوم المقدام فى الجنوب الشرقى من ميت غمر ، والكلمة فى اليونانية معناها مدينة السبع .

(٢) أبو صير بانا إلى الجنوب من سمنود .

(٣) الكلمة معناها مدينة الكلب ، وهى قريبة من بوسيريس حتى أنهما أصبحتا فيما بعد مدينة واحدة .

(٤) فى الأساطير اليونانية أن بوسيريس ابن پوزيدون إله البحر ، راجع هيرودوت ٢ ، ٦١ وديودور الصقلى ١ ، ٤٥ .

يغرقون من الغرباء من يبحر بحذاء بلادهم فى طريقه إلى ساردو [1] أو إلى الأعمدة [2] . ولهذا السبب كان الكثير مما يحكى عن بلاد المغرب مما لا يصدّق . ولقد كان الفرس أيضاً فيما يقول أدلاء خونه يقودون السفراء فى طرق ملتوية وفى مناطق وعرة .

٢٠ — وتتاخم المقاطعة البوسيرية المقاطعة الأثريبية ومدينة أثريبيس [3] وكذلك المقاطعة البروسوبية التى فيها مدينة أفروديتوبوليس وفيما وراء الفرعين المنديسى والتانيسى توجد بحيرة كبيرة والمقاطعتان المنديسية والليونتوبوليسية ومدينة أفروديت والمقاطعة الفاربيتية ، ثم يلى ذلك الفرع التانيسى ويسميه البعض الفرع السايسى والمقاطعة التانيسية وفيها تانيس [4] وهى مدينة كبيرة .

٢١ — وتوجد بين الفرعين التانيسى والبيلوزى بحيرات ومستنقعات متصلة وفيها قرى عديدة ، وبيلوزيوم نفسها تحيط بها المستنقعات ويسميها البعض جبأ والبعض الآخر بركا ، وهى تقع على بعد يزيد عن عشرين ستاد من البحر ، ومحيط سورها عشرون ستاد واسمها مشتق من من كلمة « بيلو » أى حمأ البرك ، ويتعذر

---

(١) جزيرة سردينية وفى الكتب العربية سردانية .

(٢) هى أعمدة هرقل أى مضيق جبل طارق .

(٣) تل اتريب بالقرب من بنها .

(٤) صان الحجر .

الوصول إلى مصر من هذه الناحية أى من الناحية الشرقية المواجهة لفينيقية واليهودية ومن ناحية بلاد العرب النبطية المتاخمة لها ، فالطريق إلى مصر يخترق هذه المناطق ، والبلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر هى بلاد العرب ، وفى طرفها تقع مدينة بيلوزيوم ولكن الإقليم كله صحراء لا يمكن أن يجتازها جيش ، والبرزخ الواقع بين بيلوزيوم وتجويف البحر الأحمر بالقرب من هيروپوليس [1] طوله ألف ستاد، ولكن عرضه يقل عن ١٥٠٠ ستاد كما جاء فى پوزيدونيوس ، وعلاوة على كونه خال من الماء ورملى، فهو غاص بالزواحف التى تستخفى فى الرمال .

٢٢ — وإذا صعد المرء فى النهر من سخيديا نحو منفيس [2] يجد إلى اليمين عدداً كبيراً من القرى تمتد حتى بحيرة ماريا، إحداها القرية التى يسمونها خابرياس . وتقع على النهر مدينة هرموپوليس [3] وتليها مدينة جينايكوپوليس [4] والأقليم الجينايكوپوليسى ، ويليها مومفيس [5] والأقليم المومفيسى . وتتخلل هذه المقاطعات قنوات عديدة تصب فى بحيرة مريوطيس وأهل مومفيس يعبدون أفروديتى،

(١) تل المسخوطة ، والكلمة فى اليونانية تعنى مدينة الأبطال .
(٢) ميت رهينة .
(٣) دمنهور .
(٤) كوم فيرين بالقرب من الدلنجات والكلمة تعنى فى اليونانية «مدينةالنساء»
(٥) لعلها كوم أبو بيلو .

ويحتفظ هناك ببقرة مقدسة كما يحتفظ بأبيس فى منفيس وبمنيفيس (١) فى هليوبوليس (٢). والآن، فان هـــذه الحيوانات تعد آلهة، أما الحيوانات التى فى البلدان الأخرى (ذلك أنه فى كثير من البلدان الأخرى، سواء فى الدلتا أو فى الصعيد أو فيما يليهما يحتفظ بعجل أحياناً وببقرة أحياناً أخرى) فلا تعد آلهة وهى مع ذلك مقدسة.

٢٣ — وفوق مومفيس يوجد واديان للنطرون يحتويان على كميات كبيرة من النطرون، والأقليم النطرونى. وهناك يُعبد سيرابيس، ويضحى بالماشية عند أهل هذا الأقليم دون غيرهم فى مصر. وهناك على مسافة قريبة توجد مدينة مينيلاوس. وإلى اليسار فى الدلتا توجد نوقراطيس على النهر. أما سايس فتقع على مسافة ٢ سخينوس من النهر. وفوق سايس بقليل يوجد حرم أوزيريس الذى يرقد فيه — فيما يقولون — أوزيريس. ولكن الكثيرين يرون غير

(١) جاء فى ديودور الصقلى ١ و ٢١ «ان كل جماعة من الكهنة تعتقد الى يومنا هذا بأن أوزيريس قد دفن بين ظهرانيهم، ولا زالوا يقدسون الحيوانات التى خصصت له من قديم الزمان، وعند موتها يستأنف الحداد على أوزيريس من جديد عند قبورها، وخصص له العجلان المقدسان اللذان يسمى أحدهما أبيس والآخر منيفيس، وفرضت عبادتهما كأنهما إلهان على جميع المصريين على السواء».

(٢) المطرية، والكلمة فى اليونانية تعنى «مدينة الشمس».

هذا الرأى ، وبوجه خاص سكان فيلاى[1] التى تقع فوق سينى[2] والفنتين[3] لأنهم يأخذون بالأسطورة القائلة بأن إيزيس دفنت توابيت أوزيريس تحت الثرى فى مواضع عديدة (وأحدها فقط يضم رفات أوزيريس وهذا خاف على الجميع) وأنها فعلت ذلك لأنها أرادت أن تخفى رفاته عن طيفون لئلا يجدها فيذر الجثة خارج القبر[4].

٢٤ — وهذا هو وصف البلاد من الاسكندرية إلى رأس الدلتا : يقول أرتميدوروس إن الرحلة فى النهر تصعيداً مسافة ٢٨ سخينوس ، وهذا يساوى ٨٤٠ ستاد بحساب السخينوس ٣٠ ستاد ، وعندما أبحرنا نحن أنفسنا صعداً فى النهر كان يستعمل فى حساب المسافات فى المناطق المختلفة سخينوس مختلف الطول . حتى إن السخينوس الذى كان يؤخذ به كان يبلغ أربعين ستاد أو تزيد تبعاً للمناطق . وإن أرتميدوروس نفسه ليوضح فى العبارة التالية أن طول السخينوس كان غير ثابت عند المصريين ، فهو يقول إن السخينوس من منف حتى إقليم طيبة مؤلف من ١٢٠ ستاد ، ولكنه من إقليم طيبة حتى سينى مؤلف من

(١) تسمى فى الكتب العربية بلاق .

(٢) أسوان .

(٣) تسمى فى الكتب العربية جزيرة الفيل أو جزير الذهب .

(٤) روى ديودور الصقلى القصة بالتفصيل ١ ، ٢١ — ٢٣ .

٦٠ ستاد ، وأنه إذا أبحر المرء مصعّداً من بيلوزيوم إلى رأس الدلتا نفسه فالمسافة ٢٥ سخينوس أى ٧٥٠ ستاد بنفس المقياس .
وعندما يبحر المرء من بيلوزيوم ، فأول قناة تقابله هى تلك التى تملأ البحيرات التى تسمى مستنقعية ، وهى اثنتان واقعتان على الضفة اليسرى من النهر العظيم فيما يلى بيلوزيوم فى بلاد العرب . وهو يذكر بحيرات أخرى أيضاً وقنوات فى هذه المناطق نفسها خارج حدود الدلتا . وهناك الاقليم السيثوريسى الذى يمتد بحذاء البحيرة الثانية ، وهو يعد هذا الاقليم واحداً من الاقاليم العشرة التى فى الدلتا . وتصب قناتان أخريان فى هاتين البحيرتين بالذات .

٢٥ — وهناك قناة أخرى تصب فى البحر الأحمر والخليج العربى بالقرب من مدينة أرسنوى [١] التى يسميها البعض كليوباتريس وهى تنساب خلال البحيرات التى تسمى المرّة . وقد كانت من قبل مرّة ، ولكنها حينما حفرت القناة المذكورة تغيرت بتأثير النهر . وهى الآن غاصة بالسمك ومليئة بالطيور المائية .

ولقد حفر القناة فى أول الأمر سيسوستريس قبل الحروب الطروادية [٢] ولكن يذهب البعض إلى أن حافرها كان ابن [٣]

---

(١) السويس .
(٢) أى قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد .
(٣) نيخو ابن بسماتيك (راجع هيرودوت ، ٢ ، ١٥٨ و ديودور الصقلى ١ ، ٣٣) حكم مصر من ٦٠٩ إلى ٥٩٣ ق . م .

بسماتيك الذى بدأ العمل فقط ثم فارق الحياة . وفيما بعد حفرها دارا الأول [1] الذى استأنف العمل فى حفر القناة ولكنه هو أيضاً بعد أن اقتنع برأى ضال ، ترك العمل وهو على وشك الانتهاء ، ذلك أنه اقتنع بأن منسوب البحر الأحمر أعلى من سطح الأرض فى مصر ، وأنه لو شق كل البرزخ الذى بينهما لغمرت مياه البحر مصر .

ومهما يكن من شىء فقد احتفر الملوك البطالمة [2] القناة وجعلوا المضيق مغلقاً حتى إنهم كانوا كلما شاءوا يبحرون إلى عرض البحر ويعودون بالتالى بغير عائق .

وقد دار الحديث عن مناسيب الأمواه فى الكتب الأولى .

٢٦ — وتقع بالقرب من أرسنوى فى تجويف الخليج العربى فى ناحية مصر هيروپوليس وكليوپاتريس وبالقرب منها توجد موانىء ومحلات وقنوات كثيرة وبحيرات ، وهناك أيضاً يقع الإقليم الفاجوريوپوليسى ومدينة فاجوريوپوليس [3] . وتبدأ القناة التى تصب فى البحر الأحمر من قرية فاقوسة [4] التى تتاخمها

---

(١) ملك الفرس حكم مصر من ٥٢١ — ٤٨٥ ق.م

(٢) شقها بطليموس الثانى كما ورد فى ديودور الصقلى ١، ٣٣

(٣) لعلها فى وادى الطميلات ، والكلمة فى اليونانية تعنى (مدينة الابراميس)

(٤) صفط الحنة .

الناووس ، ويتقاربان بعد ذلك كلما تقدم المرء إلى الأمام، إلى أن تصبح المسافة بينهما خمسين أو ستين ذراعاً . وبهذه الحوائط صور ضخمة محفورة شبيهة بالصور الإترسكية [1] وبالصور المحرقة فى القدم المصنوعة عند اليونانيين . ويوجد بهو ذو أعمدة كالذى فى منفيس مثلا ، وهو همجى الطراز فيما عدا أن الأعمدة ضخمة وكثيرة وتؤلف صفوفاً عديدة ، فليس فى البهو ما يسر أو يعجب بل هو مجرد إظهار لمجهود لا طائل تحته .

٢٩ — ورأينا فى هليوپوليس بيوتاً كبيرة كان يعيش فيها الكهنة . فهم يقولون إن هذه المدينة كانت فى الزمن القديم مقراً للكهنة ولطائفة الفلاسفة وعلماء الهيئة ولقد زالت الآن هذه الطائفة والدراسات جميعاً . والحق إنهم لم يطلعونا هناك على واحد يشرف على دراسة من هذا القبيل . اللهم إلا القائمين على تقديم القرابين . والذين كانوا يفسرون للزوار الطقوس الدينية .

ولما صعّد أيليوس جاللوس [2] الوالى فى النيل إلى مصر [3]

---

(١) الأترسكيون أحد الشعوب التى سبقت إلى سكنى إيطاليا، وبلغوا أوج مجدهم فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ويظهر أن موطنهم الأصلى كان ليديا فى آسيا الصغرى ، وتدل الصور المحفورة على قبورهم على تأثر بالمدرسة الفيثاغورية .

(٢) هو ثانى ولاة مصر من قبل الامبراطور أغسطس وقد قام بهذه الرحلة حوالى عام ٢٥ ق . م .

(٣) كانت الكلمة « مصر » تطلق على القطر كله ما عدا الاسكندرية .

كان فى حاشيته رجل من الأسكندرية اسمه خايريمون [1] وقد كان يدعى شيئاً من المعرفة بهذه العلوم . ولكنه كان فى أكثر الأمر موضع الهزء باعتباره دعّيا قدماً . وعلى أى حال فقد أطلعونا هناك على بيوت الكهنة ومدارس أفلاطون ويودوكسوس ، ذلك أن يودوكسوس [2] صحب افلاطون إلى هناك ، وأمضيا كلاهما هناك مع الكهنة ثلاثة عشر عاماً فيما ذكر البعض ، إذ أنه لما كان هؤلاء خبيرين بعلوم الأجرام السماوية، وبالرغم أنهم كانوا صموتين ويصعب عليهم بذل العلم ، فقد استطاعا بمرور الزمن وباسترضائهم أن يتعطفاهم حتى سمحوا لهما بتلقن بعض نظرياتهم ، ولكن البرابرة قد أخفوا أكثر العلم . وعلى كل فقد لقنوهما أجزاء النهار والليل التى تزيد عن الخمسة والستين والثلثمائة يوماً فتكمل دورة السنة [3] . وقد كانت السنة الكاملة مجهولة فى ذلك الوقت لدى اليونانيين ،

---

(١) يظن البعض أنه الفيلسوف السكندرى الرواقى الذى كان معلماً لنيرون سنة ٤٩ بعد الميلاد ، والذى تهكم به الشاعر الهجائى مارتياليس ١١ ، ٥٦ ولكنهما على الأرجح شخصان مختلفان .

(٢) فيلسوف أ كنيدى ٤٠٨ — ٣٥٥ ق. م برع فى الرياضيات والفلك وزار مصر ٣٨١ — ٣٨٠ ق. م .

(٣) أى وقفوا على نظام السنة الكبيسة باضافة يوم إلى السنة كل أربع سنوات ، ويقول ديودور الصقلى ١ ، ٥٠ « وهم يضيفون فى حسابهم خمسة أيام وربما كل إثنى عشر شهراً ، وبذلك يتمون مدار السنة » .

كما كانت أشياء أخرى مجهولة لديهم إلى أن أستقاها علماء الهيئة المتأخرون ممن ترجموا وثائق الكهنة إلى اليونانية . ولا زالوا إلى الآن يأخذون عنهم ، كما يأخذون عن الكلدانيين ، علومهم .

٣٠ — ويلى هليوپوليس فيما يلى الدلتا النيل ، وتسمى المنطقة التى تقع على يمين المصعد فى النهر ليبيا كما تسمى كذلك المنطقة التى حول الاسكندرية ومريوطيس . وتسمى المناطق التى إلى اليسار بلاد العرب . والآن فإن هليوپوليس تقع فى بلاد العرب فى حين أن مدينة كركيسورا [١] التى تقع بالقرب من مراصد يودوكسوس واقعة فى ليبيا . ذلك بأنه يرى أمام هليوبوليس مرصد كما هو الحال أمام كنيدوس ، كان يودوكسوس يرقب بعض حركات الأجرام السماوية بالنسبة إليه . وهذا هو إقليم ليتوپوليس .

وإذا صعد المرء فى النهر قابل بابيلون [٢] وهو حصن قوى لبعض البابليين الذين اعتصموا هناك ثم التمسوا من الملوك أن يقيموا محلة هناك ، وهو الآن معسكر إحدى الكتائب التى تخفر مصر . وتمتد من المعسكر حتى النيل سلسلة صخرية ينقل الماء عبرها من النهر بوساطة السواقى والطنابير . ويستخدم

(١) لعلها الوراق .
(٢) مصر القديمة ، راجع ديودور الصقلى ١ ، ٥٦ .

فى هذا العمل مائة وخمسون سجيناً . وترى من هذا الموضع بجلاء الأهرام فى الجانب الآخر من النهر فى منفيس ، فهى قريبة من هذا الموضع .

٣١ — ومنفيس نفسها - وهى مقر ملوك مصر - قريبة كذلك إذ أن المسافة من الدلتا إليها ثلاث سخينوس . وهى تحتوى على معابد منها معبد أبيس وهو أوزيريس نفسه ، وهنا يحتفظ بالثور أبيس فى مقصورة وهو يعدّ كما قلت إلهاً . وبجبهته وببعض أجزاء صغيرة أخرى من جسمه سيمات بيضاء أما سائر الأجزاء فسوداء ، وعندما ينفق الثور الذى يتمتع بالتقديس ينتخبون دائماً الثور الذى يصلح لأن يخلفه بالنظر إلى هذه العلامات .

ويقع أمام المقصورة فناء وفيه مقصورة أخرى لأم الثور ، وهم يطلقون العجل أبيس فى هذا الفناء فى ساعة معينة ليشاهده الزوار خاصة ، فمع أن الناس يشاهدونه من خلال نافذة فى المقصورة فإنهم يحبون أن يرونه خارجها أيضاً ، وبعد أن يعدو قليلا فى الفناء يسوقونه ثانية إلى مقره الدائم .

ويوجد هنا معبد أبيس المجاور لمعبد هيفايستوس ، ويوجد أيضاً معبد هيفايستوس نفسه ، وهو بناء باهظ النفقات من حيث ضخامة ناووسه ومن سائر الوجوه ، ويقع أمام المعبد فى المجرى تمثال كبير من حجر واحد ، والعادة أن تقام فى هذا المجرى

مصارعات الثيران ، وقد كان البعض يربونها لهذا الغرض كمن يربون الخيل . وتلتحم الثيران فى المعركة عند ما تطلق وما يُسَدّ الغالب يظفر بجائزة ، ويوجد فى منفيس أيضاً معبد أفروديتى التى تعد إلهة يونانية [1] ، ومع ذلك فيذهب البعض إلى أن المعبد لسيلينى [2] .

٣٢ - ويوجد هناك أيضاً سرابيوم فى بقعة تكثر بها الرمال إلى حد أن كثبانا من الرمل تتراكم بفعل الرياح ، وبهذه الكثبان دفنت تماثيل أبى الهول التى رأيناها ، دفن بعضها حتى الرأس ، والبعض الآخر إلى الوسط ، ومن هذا يمكن أن تتصور مبلغ الخطر لو أن عاصفة داهمت الميمم شطر المعبد على الأقدام ، هذا والمدينة كبيرة ومكتظة بالسكان ، وهى ثانية المدن بعد الاسكندرية وأهلها مختلطو الأجناس كالذين استوطنوا الاسكندرية . وتوجد بحيرات أمام المدينة والقصور ، وهذه متهدمة الآن ومهجورة وهى قائمة على مرتفع وتمتد حتى مستوى المدينة فى أسفل ، ويتصل بالمدينة حرش وبحيرة .

---

(١) قال هيرودوت ٢ ، ١١٢ إنه رأى معبد « أفروديتى المغتربة » واستنتج أنه كان معبد هيلينة ، والمرجح أن المعبد كان لعشتروت وهى تقابل أفروديتى فى سوريا وفينيقية .

(٢) إلهة القمر .

٢٣ — ويجد السائر على مسافة أربعين ستاد من المدينة هضبة جبلية تقع عليها أهرام عديدة - هى مقابر للملوك - ثلاثة منها جديرة بالذكر ويعد اثنان (١) منها من العجائب السبع أيضاً . ذلك بأن ارتفاعهما ستاد أما شكلها فمربع . وارتفاعهما يزيد قليلاً عن طول كل من اضلاعهما . وأحدهما أكبر من الآخر بقليل، وفى أعلاه فى الوسط تقريباً بين الأضلاع ، حجرة يمكن أن تنتزع وعندما تنزع هذه الحجرة يوجد ممر منحدر حتى اللحد . وهذان الهرمان قريبان الواحد من الآخر وهما على نفس المستوى . وعلى بعد يوجد على ارتفاع أعلا من الهضبة هرم ثالث أصغر من هذين الهرمين بكثير ولكن نفقات بنائه كانت أكبر ببعيد لأنه مبنى من الحجر من أساسه حتى الوسط تقريباً . ويجهز الملاط كذلك من هذا الحجر الذى يؤتى به من بعيد ، ذلك أنه ينقل من جبال إيثيوبية . وحيث أنه صلد يصعب صقله فقد جعل العملية باهظة النفقات وهو يسمى « قبر المحظية » أقامه لها عشاقها ،وهى المحظية التى تسميها سافو (٢) الشاعرة الغنائية دوريخا وقد كانت عشيقة أخيها خاراكسوس الذى كان ينقل نبيذ لسبوس إلى نوقراطيس

---

(١) يصف هيرودوت هرمى خوفو وخفرع فى ٢ ، ١٢٤ — ١٢٧ ، ويصفهما ديودور الصقلى فى ١ ، ٦٣ — ٦٤ .

(٢) شاعرة لسبوس الشهيرة عاشت حوالى سنة ٦٠٠ ق . م ، ونددت بدوريخا فى المقطوعة ١٣٨ .

التجارة ، ويسميها آخرون رودوبيس [1]. وهم يحكون إنها عندما كانت تستحم خطف نسرٌ أحد نعليها من وصيفتها وحمله إلى منفيس . وكان الملك يجلس للقضاء تحت قبة السماء فلما حلق النسر فوق رأسه أسقط النعل فى حجره، فعجب الملك لحسن تناسب النعل ولغرابة الواقعة، وأرسل فى البلاد للبحث عن صاحبة هذا النعل . ولما وُجدت فى مدينة نوقراطيس أحضرت وأصبحت زوج الملك . ولما ماتت كان نصيبها المقبرة المذكورة .

٣٤ — ولا ينبغى أن أهمل إحدى الظاهرات العجيبة التى طالعتنا عند الأهرام ، ذلك بأنه توجد أمام الأهرام أكوام من جزازات الحجر توجد بينها قطع تشبه حبات العدس[2] فى الشكل والحجم ، ويوجد تحت بعض هذه الأكوام مادة كالحبوب نصف المقشورة يقال إنها بقايا أكل العمال وقد تحجرت ، وليس هذا ببعيد الاحتمال ، ففى موطنى يوجد تل ممتد فى السهل ، وهذا التل مليء بحصى من الحجر المسامى تشبه حبات العدس وإن الحصى البحرية والنهرية لتثير المشكلة عينها تقريباً ، ولكن فى حين تجد هذه تفسيراً ما فى الحركة التى تتسبب عن التيار فإن إدراك تلك أشد إشكالا .

(١) أى حمراء الوجنتين ، وقد استفاض ذكر هذه الغانية بين اليونان حتى عزوا إليها هرم منقرع . وقد وردت قصتها بالتفصيل فى هيرودوت ٢، ١٣٤—١٣٥

(٢) هى قواقع اسطوانية متحجرة .

ولقد ذكر فى موضع آخر [1] أنه بالقرب من مقلع الأحجار التى بنيت منها الأهرام، وهى على مرأى من الهرم، وفى الضفة الأخرى من النهر فى بلاد العرب، يوجد جبل صخرى جداً يسمى الجبل الترو ى، فى أسفله كهوف وقرية قريبة من هذه الكهوف ومن النهر جميعاً تسمى طرويا [2]، كانت محلة قديمة للأسرى الطرواديين الذين صحبوا مينيلاوس ولكنهم استقروا هناك .

٣٥ — وتلى منفيس مدينة أكانثوس وهى أيضاً واقعة فى ليبيا، ومعبد أوزيريس وغيضة السنط الطيبى الذى يستخرج منه الصمغ، ثم الاقليم الأفروديتى ومدينة بالإسم نفسه [3] فى صحراء العرب، وفيها يحتفظ ببقرة بيضاء مقدسة، ثم الاقليم الهرقلى وهو فى جزيرة كبيرة، وبحذائها إلى اليمين القناة التى تؤدى فى صحراء ليبيا إلى الاقليم الأرسنوى [4] حتى أن القناة ذات مصبين يقع بينهما جزء من الجزيرة، وهذا الإقليم الأرسنوى أكثر الأقاليم كلها جدارة بالذكر لبهائه وفضله وتقدمه المادى، ذلك بأنه الإقليم الوحيد الذى ينبت الزيتون فى أشجار ضخمة نامية ذات ثمار بديعة، ولو جمعت ثماره على وجه

(١) ليس فى كتاب الجغرافيا، ولعله تناول هذا الموضوع فى كتابه «**الصور التاريخية**» الذى ضاع .

(٢) طره، راجع ديودور الصقلى ١، ٥٦ .

(٣) أفروديتوبوليس هى الآن أطفيح .

(٤) الفيوم .

حسن لأخرج زيتاً طيباً . ومع أنهم قليلو العناية بهذا الأمر فإنهم يخرجون زيتاً كثيراً ولكنه خبيث الرائحة (أما سائر مصر فخال من شجر الزيتون فيما عدا الحدائق حول الاسكندرية فهى صالحة لإنبات الزيتون ولكنها لا تخرج الزيت) وهى تنتج الزيت بكميات غير قليلة والقمح والفول وسائر البقول من أصناف كثيرة . وهى تشمل كذلك البحيرة التى تسمى بحيرة مويريس [1] وهى فى اتساعها بحر، ولون مياهها كلون البحر، وتبدو شواطئها شبيهة بشواطىء البحر، حتى إن المرء ليذهب فى هذه المناطق مذهبه فى المناطق المحيطة بآمون [2] (والحق أنهما لا يبعدان عن بعضهما كثيراً ولا عن پارايتونيوم) فكما نستنتج من جملة الشواهد أن ذاك المعبد كان يقوم من قبل على البحر فكذلك هذا الإقليم كان واقعاً على البحر من قبل، وكانت مصر السفلى والمناطق الممتدة إلى بحيرة سربونيس [3] بحراً يلتقى بالبحر الأحمر فيما نظن بالقرب من مدينة هيروبوليس والخليج الأيلى [4] .

---

(١) بحيرة قارون .

(٢) واحة سيوة .

(٣) تسمى الآن بردويل نسبة إلى بلدوين ملك بيت المقدس الذى مات فيها فى الحروب الصليبية سنة ١١١٨ .

(٤) خليج العقبة ، والنسبة اليونانية إلى أيلة ، قال ياقوت (أيلة مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام) .

٣٦ ــ لقد دار الكلام حول هذه المسائل بإسهاب فى الجزء الأول من « الجغرافيا » وينبغى الآن كذلك أن أذكر عمل الطبيعة وأثر « العناية » [1] فى الوقت عينه ؛ حيث أنهما يهدفان إلى غرض واحد. أما عمل الطبيعة فهو أن كل الأشياء تتجمع فتصبح شيئاً واحداً هو مركز الكل ، وتتكوّن حوله كرة ، وأكثف الأشياء وأكثرها تمركزاً هى الأرض ، أما الماء فيقل عنها كثافة ويأتى بعدها . وكل من الأرض والماء كرة أما أولها فصماء، وأما الأخرى فجوفاء وتشتمل فى داخلها على الأرض . أما عمل « العناية » فهو أنها قد شاءت وهى المطرزة وصانعة مالا يعد ولا يحصى من أعمال، أن يكون من أول أعمالها خلق كائنات حية أسمى من سائر الأشياء بكثير، وأرفع هذه الكائنات الآلهة والبشر . وقد أنشئت من أجلها سائر الأشياء ، وخصت الآلهة بالسماء ، وخصّ البشر بالأرض وهما طرفا شطرى الكون، وإن طرفى الكرة هما مركزها وقشرتها الخارجية . ولكن حيث أن الماء يحيط بالأرض ، ولم يكن الانسان حيواناً مائياً ، بل أرضياً وهوائياً ويحتاج إلى ضوء كثير ، فقد هيأ مرتفعات ومنخفضات كثيرة فى الأرض حتى أن الماء كله أو أكثره ليستقر فى المنخفضات فيغمر الأرض تحته وتبرز الأرض فى المرتفعات فتخفى الماء تحتها ، فيما عدا ذلك القدر

(١) كان استرابون رواقياً و « العناية » من أمهات عقائده .

الضرورى لجسم الانسان، ولما يحيط به من حيوان ونبات . ولكن حيث أن الأشياء كلها خاضعة دائماً إلى الحركة والتغييرات الكبيرة، إذ أنه لا يتيسر بغير ذلك ضبط أجسام فى الكون هذه طبيعتها ومبلغ ضخامتها وتعددها ، فلا ينبغى أن نفترض أن الأرض تبقى دائماً على حال واحدة ، بحيث تكون دائماً ذات حجم واحد لا تنقص منه أو تزيد ، ولا أن الماء كذلك ، ولا أن أحدهما يلتزم حده التزاماً، خصوصاً وأن تداخل الواحد فى الآخر طبيعى جداً وهما شديدا الاتصال . وإن الكثير من الأرض ليتحول إلى يابسة بنفس الطريقة التى يحدث بها ذلك فوق الأرض التى يحدث فيها كثير من مثل هذه التغييرات ، ذلك أن بعض أنواع التربة هش والبعض الآخر صلب أو صخرى أو حديدى وكذلك الحال فى سائر الأنواع . والأمر كذلك فى خواص السوائل، فبعض أنواعها مالح والآخر عذب مستساغ والآخر معدنى فهو صحى أو قتال ويكون حاراً أو بارداً . فما هو وجه العجب إذن لو أن بعض أجزاء الأرض المعمورة الآن كانت من قبل يغطيها البحر ، وأن أجزاء هى الآن بحوراً كانت من قبل مأهولة ؟ فكما أن ينابيع كانت من قبل ثرة يحدث أن تجف ويتفجر غيرها ، وأنهاراً وبحيرات ، فكذلك الجبال والسهول يحدث أن يتحول الواحد إلى الآخر . ولكنا قد تحدثنا عن هــذه المسائل

بإسهاب من قبل ، فلننتقل بالحديث الآن إلى ما يلى .

٣٧ — بحيرة موريس (١) كافية لضخامتها وعمقها لأن تستوعب المياه الفائضة عند ارتفاع النهر دون أن تفيض على البقاع المسكونة والمزروعة ، ثم أن تصير المياه الزائدة إلى النهر عند انخفاضه عن طريق القناة نفسها عند كلا مصبيها ، والبحيرة كافية مع القناة لأن تختزن الماء الباقى اللازم للرى ، هذه هى خصائصها الطبيعية . وتقوم على مضى القناة كليهما أهوسة يضبط المهندسون بوساطتها المياه الداخلة والخارجة .

وبهذا الاقليم إلى جانب ذلك بناء اللابيرنث (٢) وهو أثر يضاهى الأهرام ، وبالقرب منه قبر الملك الذى بناه ، وإذا تقدم المرء حوالى ثلاثين أو أربعين ستاداً يجد بالقرب من مدخل القناه الأول موقعاً مستوياً كالخوان يشتمل على قرية وقصر كبير مؤلف من قصور كثيرة بعدد الأقاليم فى الزمن القديم ، ذلك بأن هذا هو عدد الأبهاء المحاطة بالأعمدة ، المتصلة بعضها ببعض وكلها فى صف واحد وبحذاء حائط واحد ، فكأنه حائط طويل تقع

(١) راجع هيرودوت ٢ ، ١٤٨ — ١٤٩ ، وديودور الصقلى ١ ، ٦٦

(٢) اللابيرنث أو قصر التيه هو المعبد الذى ابتناه امنمحت الثالث من الأسرة الثانية عشرة ، بالقرب من هرم هوارة ، وقد وصفه هيرودوت ٢ ، ١٤٨ وديودور الصقلى ١ ، ٦٦

أمامه الأبهاء والطرق المؤدية إليها فى عكس الحائط ، وتقع أمام المداخل أفنية طويلة متعددة يتصل الواحد منها بالآخر بطرق متعرجة ، حتى إنه لا يستطيع أحد من الغرباء أن يجد طريقه إلى أحد الأبهاء أو منه بغير دليل ، والعجيب أن سقف كل غرفة من الغرف من حجر واحد ، وأن عروض الأفنية مسقوفة بألواح من حجر واحد كذلك بالغة الضخامة ، ولا يتخللها شيء من الخشب أو من أية مادة أخرى ، وإذا ارتقى المرء السقف وهو شاهق العلو لأنه من طابق واحد ، يرى سهلا حجرياً من أحجار من ذلك الحجم ، فإذا هبط من هناك ثانية خارجا نحو الأبهاء يرى أنها تقع فى صف واحد ، وأن كلا منها يقوم على سبعة وعشرين عموداً من حجر واحد ، والحوائط مبنية من حجارة لا تقل عن هذه ضخامة ، وفى نهاية هذا البناء الذى يشغل مساحة تزيد على ستاد توجد المقبرة ، وهى هرم مربع القاعدة طول كل ضلع من أضلاعه حوالى أربعة بليثرون وهو مثل ذلك فى الارتفاع . وإيمانديس [1] هو اسم المدفون فيه ، ويقولون ن هذا العدد من الأبهاء قد أنشىء ، لأن العادة جرت بأن تجتمع كل الأقاليم هناك تبعاً لمنزلتها مع كهنتها وكاهناتها لتقديم القرابين والأهداء للآلهة وإقامة العدل فى عظائم

(١) يسميه استرابون فيما يلى إيسماندیس ٤٢ ، ويسميه ديودور الصقلى منديس ويقول ١ ، ٦١ « ويسميه البعض ماروس » .

الأمور . وكان كل إقليم يوجّه إلى إلهه المخصص له .

٣٨ — وإذا أبحر المرء في القناة مسافة مائة ستاد ، قابل مدينة أرسنوى (١) ، وكانت من قبل تدعى كروكوديلوپوليس (مدينة التماسيح) . ذلك بأنهم يعظمون التمساح في هذا الاقليم تعظيما كبيراً ، وهناك تمساح مقدس عندهم يربى وحده في بحيرة ، وهو أليف للكهنة ويسمى سوخوس ويطعم الحبوب واللحم والنبيذ التي يقدمها دائماً الزوار الذين يذهبون لمشاهدته . ومهما يكن من شيء ، فإن مضيفنا وهو رجل من ذوى النفوذ ، وكان يطلعنا على الأسرار الدينية هناك ، ذهب معنا إلى البحيرة وقد حمل معه من المائدة كعكة ولحماً مشوياً وإبريق نبيذ معسّل . ووجدنا الحيوان مستلقاً على حافة البحيرة ، ولما توجه إليه الكهنة فتح أحدهم فاه ، ودس آخر فيه الكعكة ثم سكب فيه النبيذ المعسل . وعندئذ قفز التمساح فى البحيرة واندفع إلى الضفة المقابلة . ولكن عندما قدم زائر آخر حاملاً البواكير ، أخذها الكهنة وجروا حول البحيرة وأمسكوا بالتمساح وأطعموه على النحو المتقدم ما حُملَ إليه .

٣٩ — وبعد الاقليم الأرسنوى والاقليم الهرقلى توجد مدينة هرقل (٢) حيث يعظم أهلها النمس مخالفين فى ذلك أهل

(١) مدينه الفيوم .
(٢) اهناسيا المدينة غرب بنى سويف .

إقليم أرسنوى ، إذ أن هؤلاء يعظمون التماسيح . ولذلك كانت القناة عندهم خاصة بالتماسيح وكذلك بحيرة موريس ، لأنهم يخافونها ولا يتعرضون لها . هذا في حين أن أولئك يعظمون النموس ألد أعداء التماسيح والحيات أيضاً . فهى لا تفتك ببيض الحيات فحسب ، بل تفتك بالحيات نفسها ، بعد أن تتخذ درعاً من الطين . ذلك أنها تتمرغ فى الطين وتجففه بالتعرض للشمس ، ثم تمسك بالحيات ، إما من الرأس أو من الذنب ، وتسحبها إلى النهر وتهلكها . وهى تكمن للتماسيح ، وعندما تتعرض للشمس وقد فغرت أفواهها ، تقفز بين فكيها وتنهش أحشاءها وبطونها وتنسل من أجسامها وقد تركتها جثة هامدة .

٤٠ — ويأتى بعد ذلك إقليم كينوپوليس ومدينة كينوپوليس (١) (مدينة الكلب) حيث يعظم أنوبيس (٢) وحيث تقام مأدبة مقدسة للكلاب ، ويوجد على الضفة المقابلة من النهر مدينة أوكسيرنخوس (٣) مدينة القنومة) وإقليم بهذا الإسم ، وهناك يعظمون القنومة . ويوجد عندهم معبد للقنومة مع أن سائر المصريين يشتركون

---

(١) الشيخ فضل فى مواجهة بنى مزار .

(٢) يقول ديودور الصقلى ١ ، ٨٧ « يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس »

(٣) البهنسة .

فى تعظيم القنومة ، ذلك أن كافة المصريين يشتركون فى تعظيم بعض الحيوانات كالحيوانات البرية الثلاثة : الثور والكلب والقط ، واثنين من ذوات الأجنحة : الصقر وأبى منجل ، واثنين من الحيوانات المائية : الشبوط والقنومة .

وهناك بعض الحيوانات تعظمها كل فئة على حدة ، فأهل سايس مثلا يعظمون الكبش وكذلك أهل طيبة [1] ، وأهل إقليم لاطوبوليس يعظمون اللوطوس [2] وهو نوع من السمك فى النيل ، وأهل إقليم ليكوبوليس (مدينة ابن آوى) يعظمون ابن آوى ، وأهل إقليم هرموبوليس يعظمون القرد ، وأهل بابيلون الذين يعيشون بالقرب من منفيس يعظمون « الكيبوس [3] » (والكيبوس له وجه يشبه وجه « الساتير » وهو فى سائر الاعتبارات وسط بين الكلب والذب ويتوالد فى أثيوبية) ويعظم أهل طيبة النسر ، وأهل إقليم لينتوبوليس (مدينة السبع) السبع ، وأهل منديس يعظمون ماعزة وماعز ، وأهل أثريبيس يعظمون الفأر البرى ، وتعظم طوائف أخرى حيوانات أخرى . ولكن

---

(١) الأقصر .

(٢) القشر ، قال الادريسى فى وصف أسماك النيل (اللوطيس ويسميه أهل مصر بالفرخ) .

(٣) لعله القينوقفالس وهو الاسم الذى أطلقه أرسطو على القرد الكلبى الرأس .

الأسباب التى يسوقونها فى ذلك غير متفقة

٤١ — وتلى ذلك حامية هرموبوليس [١] (مدينة هرمس) وهى أشبه بمحط مكس على البضائع الواردة من إقليم طيبة ، ومن هنا يبدأ حساب السخينوس بستين ستاد ويستمر كذلك إلى سينى والفنتين . ثم تلى ذلك الحامية الطيبية [٢] والقناة التى تؤدى تانيس ، ثم تأتى مدينة ليكوبوليس [٣] (مدينة الذئاب) وأفروديتوبوليس (مدينة أفروديتى) وبانوبوليس [٤] (مدينة بان) وهى محلة قديمة لناسجى التيل والحجارين .

٤٢ — ثم تأتى بعد ذلك مدينة بطوليمايس [٥] وهى أكبر المدن فى الاقليم الطيبى ولا تقل عن منفيس ولها نظام دستورى على النسق الهلينى . وفيما يلى هذه المدينة توجد أبيدوس [٦] وفيها معبد ممنون [٧] وهو بناء ملكى مدهش كله من الحجر ، مبنى على الطراز الذى وصفته فى حديثى عن اللابيرنث ولو أنه غير مركب ، وفيه

---

(١) الأشمونين .

(٢) لعلها تونة الجبل غرب الأشمونين .

(٣) أسيوط .

(٤) أخميم .

(٥) المنشاه .

(٦) العرابة المدفونة .

(٧) المعبد الذى أقامه لأوزيريس سيثوس الأول وأكمله رمسيس الثانى .

يضاً نبع يقع فى غور حتى إن الهبوط إليه يكون عن طريق أقبية ملتوية من حجر واحد رائعة الضخامة والصنعة ، وتوجد قناة مؤدية إلى هذا الموقع من النهر العظيم وبالقرب من القناة توجد أكمة من السنف المصرى مقدسة لأبوللو ، ويبدو أن أبيدوس كانت فيما مضى مدينة كبيرة تلى طيبة فى الأهمية مباشرة وهى الآن محلة صغيرة ، وإذا كان ممنون [1] يسمى عند المصريين إيسمانديس كما يقولون ، فقد يكون اللابيرنث أيضاً معبداً لممنون ومن صُنع ذلك الرجل نفسه الذى ابتنى معابد ممنون فى كل من أبيدوس وطيبة ، إذ يقال إن هناك بعض معابد لممنون .

وتقع بحذاء أبيدوس أولى [2] ماسبق أن ذكرنا من الواحات الثلاث فى ليبيا ، وهى تبعد عنها بمسيرة سبعة أيام فى الصحراء وهى محلة غزيرة الماء كثيرة النبيذ مستوفاة لسائر الحاجيات ، وثانية [3] الواحات هى التى بالقرب من بحيرة موريس والثالثة [4] هى التى بالقرب من الوحى الذى فى آمون ، وهاتان أيضاً محلتان جديرتان بالاشادة .

---

(١) ممنون فى الأساطير اليونانية ابن تيثونوس وإلهة الفجر ، وكان قائد الايثيوبيين الذين حاربوا فى صف طروادة فى الحروب الطروادية .

(٢) الواحة الخارجة .

(٣) الواحة البحرية .

(٤) واحة سيوة .

٤٣ — لقد قلنا الكثير عن آمون ، وإنما نريد الآن أن نروى بشأنه القدر الآتى فحسب : كانت الكهانة بوجه عام والنبوءات أكثر تعظيما لدى القدماء ، ولكنها الآن موضع الاستهانة البالغة حيث أن الرومان يكتفون بالنبوءات السبيلية (١) والكهانات الاترسكية بوساطة العيافة والقيافة وشارات السماء ، ولهذا السبب أهمل وحى آمون أو كاد ، مع أنه كان من قبل معظماً ، وقد أظهر مؤرخو حياة الاسكندر هذه الحقيقة بجلاء ، وهم يسوقون كثيراً من صنوف الملق ولكنهم مع ذلك يشيرون إلى أشياء جديرة بالتصديق . ومهما يكن من شىء فقد ذكر كاليسثنيس أن الاسكندر كان شديد الطموح إلى التوجه إلى مهبط الوحى حيث إنه قد سمع أن برسيوس (٢) وكذلك هرقل (٣) قد بلغاه من قبل ، وإنه بدأ من بارايتونيوم واقتحم طريقه مع أن الرياح الجنوبية كانت تهب ضده ، وأنه لما ضل الطريق بسبب القتام نجا ، فقد سقطت الأمطار وهداه إلى الطريق غرابان . هذه الرواية الأخيرة من باب الملق ،

---

(١) السبيلات هو الاسم الذى كان يطلقه اليونان والرومان على العرافات اللائى كن يتلقين الوحى عن أبوللو .

(٢) برسيوس فى الأساطير اليونانية ابن زيوس وداناى وقد أتيح له أن يأتى بالخوارق والمعجزات ، وهو والد فرسيس الذى اشتق منه الفرس اسمهم .

(٣) هو أشهر أبطال الإغريق القدماء وقد أوتى من شدة البأس والشجاعة الخارقة ما أتاح له أن يقوم بجلائل الأعمال .

والرواية التالية من هذا القبيل أيضاً . وذلك أنهم يقولون إن الكاهن سمح للملك وحده أن يتوجه إلى المعبد فى لباسه العادى ، أما الآخرون فقد أبدلوا ملابسهم العادية ، وأن الجميع قد سمعوا أحكام الوحى من الخارج فيما عدا الاسكندر فقد تلقاها من الداخل ، وأن الوحى لم ينطلق كلاماً كما هو الحال فى دلفى وعند أهل برانخيداى (١) بل كان على الأكثر بالإيماءات والإشارات كما جاء فى هوميروس :

« قال هذا وأومأ كرونيون بحاجبيه السوداوين موافقاً »

فقدلعب الكاهن دور زيوس وأنبأ الملك صراحةأنه إبن زيوس. ويضيف كاليستنيس إلى هذه الروايات بأسلوب تراجيدى أنه مع أن وحى أپوللو لدى أهل برانخيداى قد صمت منذ نُهبَ المعبد على يد أهل برانخيداى الذين ضلعوا مع الفرس فى عهد إجزركسيس ، ومع أن النبع قد غاض فإنه بدأ فى ذلك العهد يتفجر ، وحمل سفراء الماطيين نبوءات كثيرة إلى منفيس بصدد إنحدار الاسكندر من صلب زيوس ، وانتصاره الوشيك بالقرب من أرابلا (٢) ، وموت دارا والثورات فى لقيديمونية .

---

(١) فى ديديما بالقرب من ملطية .

(٢) الإلياذه ، ١ ، ٥٢٨ .

وقال إن أثينايس الإيريثرية (١) قد هتفت هى الأخرى بطيب أرومته، ذلك أنها كانت فيما يقول شبيهة بسبيلى الإيريثرية القديمة. هذه إذن أقوال المؤرخين.

٤٤ — وفى أبيدوس يقدسون أوزيريس. ولا يسمح فى معبد أوزيريس لمغن أو لنافخ ناى أو عازف قيثار أن يستهل الشعائر كما هى العادة فى سائر طقوس الآلهة، وبعد أبيدوس تأتى مدينة ديوسبوليس الصغرى (٢) (مدينة زيوس الصغيرة) ثم مدينة تنتيرة (٣) وهناك على عكس الأمر عند سائر المصريين لا يعظم التمساح بل يعد أبغض الحيوانات كلها. ذلك أنه بالرغم من أن سائر المصريين يعرفون ضراوة الحيوان ومبلغ فتكه بالجنس الانسانى فانهم مع ذلك يقدسونه ولا يؤذونه، فى حين أن أهل تنتيرة يتعقبونها ويقتلونها بكافة الطرق. ويقول البعض أنه كما يوجد نوع من النفور الطبيعى بين البسيليين (٤) بالقرب من قورينة وبين الزواحف، فكذلك الحال بين هل تنتيرة والتماسيح، حتى إنهم لا يصيبهم منها ضر، بل إنهم ليغطسون فى النهر بلا خوف ويعبرونه فى حين لا يجرؤ

(١) الحمراء، نسبة إلى حمرة التربة فى مسقط رأسها.
(٢) هاو.
(٣) دندره.
(٤) قبيلة ليبية كانت تسكن حول خليج سدره.

أحد غيرهم على ذلك . وعندما جلبت التماسيح إلى روما لتعرض، كان يصحبها جماعة من أهل تنتيرة ، وعندما بنى حوض ومنصة فوق أحد جوانبه لتكون بمثابة مشمسة للتماسيح عند خروجها من الماء، كان هؤلاء يقفزون إلى المـاء أحياناً ، ويجرونها بشبكة نحو المشمسة حتى يراها المشاهدون ، وكانوا يدفعونها كرة أخرى إلى الماء . وهم يعبدون أفروديتى ويوجد خلف محرابها معبد لإيزيس، ثم يلى ذلك ما يقال له معبد طيفون [1] والقناة التى تؤدى إلى كيبتوس [2] وهى مدينة مشاع بين المصريين والعرب .

٤٥ — ويلى ذلك الطريق الذى يمتد إلى البحر الأحمر بالقرب من مدينة برنيقة، وهى ليست بذات مرفأ ولكنها ذات مراسى صالحة لحسن موقع الطريق . ويقال إن فيلادلفوس كان أول من فتح بجيشه هذا الطريق الذى لا ماء فيه ، وأول من أنشأ المحطات فيه كما لو كانت خصيصاً للقوافل .

ولقد قام بهذا العمل لأن البحر الأحمر صعب الملاحة خصوصاً للذين يبحرون من طرفه الأقصى ، ولقد ظهرت بالتجربة فائدة

---

(١) هو الإله ست ، وقد كانت هذه المنطقة تعرف عند اليونان والرومان باسم الطيفونية .

(٢) قفط .

(٣) سواكن .

هذا المشروع العظيمة ، وتنقل فى الوقت الحاضر كل السلع الهندية والعربية وما يستورد من السلع الايثيوبية بطريق البحر الأحمر إلى كيبتوس وهى مركز تجارة هذه السلع .

وتوجد غير بعيد من برنيقة ميوس هورموس[1] وهى مدينة بها محط بحرى للملاحين ، وتقع غير بعيد من كيبتوس المدينة المسماة أپوللونوپوليس[2] (مدينة أپوللو) وبذلك توجد على كلا الجانبين مدينتان تحدان الطريق ، ولكن تشتهر فى الوقت الحاضر كيبتوس وميوس هورموس . والناس يقصدون هذين الموقعين . ولقد كان تجار القوافل فيما مضى يسيرون ليلا مهتدين بالنجوم ، وكانوا كالملاحين يحملون الماء أيضاً فى رحلاتهم ، أما الآن فقد أعدوا الآبار بأن احتفروها على عمق بعيد ، وصنعوا صهاريج للأمطار مع أنها نادرة . وتستغرق الرحلة ستة أو سبعة أيام . وعلى هذا الطريق توجد أيضاً مناجم الزبرجد وأحجار كريمة أخرى حيث يحفر العرب ما يمكن أن نسميه دروباً عميقة .

٤٦ — وبعد مدينة أبوللونوپوليس توجد مدينة طيبة وتسمى الآن مدينة ديوسپوليس :

---

(١) أبو شعر القبلى ، ويعتقد البعض أنها القصير .

(٢) قوص .

«طيبة ذات المائة باب، التى ينطلق من كل باب منها»
« مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم » (١)

هكذا قال هوميروس ، وهو يتحدث عن غناها قائلا :

« لا ولا كل ثروة طيبة المصرية »
« التى امتلأت خزائنها أيما امتلاء »

ويقول آخرون ما يشاكل هذا جاعلين طيبة عاصمة مصر . وتُرى إلى الآن آثار عظمتها ممتدة مسافة ثمانين ستاد طولا ، وتوجد بها معابد عديدة وقد خرب قمبيز أكثرها ، والمدينة الآن مجموعة من القرى جزء منها فى صحراء العرب حيث كانت المدينة فيما مضى ، والجزء الآخر فى الضفه المقابلة من النهر حيث كان معبد ممنون ، ويوجد هنا تمثالان (٢) ضخمان متجاوران كل منهما من حجر واحد ، أحدهما سالم ، أما الآخر فقد تهدم من القاعدة إلى الأجزاء العليا على إثر حدوث زلزال فيما يقولون . والمعتقد إنه يصدر مرة كل

(١) الألياذة ، ٩ ، ٣٨٣ .

(٢) أحدهما لأمنحتب الثالث والآخر لزوجه الليبية تى . وكانت أشعة الشمس إذا سقطت على التمثال الذى صدعه الزلزال، تجعل ذرات من سطوح الأحجار تتطاير ، فيند عن التمثال هذا الصوت الذى أثار خيال العالم القديم كما تدل النقوش الكثيرة التى حفرها رواد المنطقة من علية القوم والتى يرجع أقدمها إلى سنة ٦٥ ب . م .
واسترابون هو أول من أشار إلى هذه الظاهرة . ولما زار الامبراطور سبتميوس سيفيروس مصر سنة ١٩٩ ب . م . أمر بترميم التمثال فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك التاريخ .

يوم صوت كأنه صفير خافت من ذلك الجزء من التمثال الذى بقى على العرش ومن القاعدة . وعندما كنت حاضراً فى هذه البقاع مع أيليوس جاللوس وجمهور حاشيته من الأصدقاء والجند ، سمعت أنا نفسى الصوت حوالى الساعة الأولى (١) . ولكنى لست بقادر أن أجزم فيما إذا كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم قد أطلقه أحد الذين كانوا واقفين فى دائرة بالقرب من القاعدة، ذلك أنى أميل، لخفاء العلة، إلى تصديق أى شىء إلا أن يكون الصوت صادراً من الحجارة المصفوفة على هذا النحو . وبعد معبد ممنون توجد مقابر الملوك فى كهوف، وهى حوالى الأربعين منقورة فى الحجر وقد هيأت على نحو مدهش وجديرة بأن تُرى . وبين القبور توجد على بعض المسلات نقوش تبين غنى الملوك فى ذاك العهد ، وسلطانهم الذى امتد إلى سكيثيا وباكتريا والهند وأيونية الحالية ، ومبلغ الجزية وتعداد الجيش الذى بلغ حوالى ألف ألف رجل .

ويقال إن الكهنة هناك أيضاً على الأكثر فلكيون وفلاسفة، ويرجع الفضل لهؤلاء فى أن الناس يحسبون الأيام لا بالقمر بل بالشمس، فيضيفون إلى الشهور الاثنى عشر المؤلفة كل منها من ثلاثين يوماً خمسة أيام فى كل سنة ، وحيث أن كسراً من اليوم يفيض، فهم يؤلفون فترة من الأيام الكاملة أو السنين الكاملة كافية

---

(١) يعنى الساعة الأولى من شروق الشمس أى السادسة صباحاً .

لأن تبلغ الكسور الزائدة إذا جمعت يوماً ، وهم يعزون إلى هرمس كل الحكمة التي من [illegible] النوع الخاص ، أما زيوس الذى يعظمونه بوجه خاص ، فيقفون عليه عذراء على غاية من الجمال وكرم المحتد (ويسميهن اليونانيون بالاديس [1]) وهذه تدعر وتجامع من شاءت إلى أن يحين حيضها الطبيعى ، وتزوج بعد حيضها من رجل ، ولكن تقام قبل زواجها ، وبعد فترة دعارتها ، شعائر الحداد عليها .

٤٧ — وبعد طيبة توجد مدينة هرمونثيس [2] التى يُعبد فيها أبوللو وزيوس وهناك أيضاً يحتفظ بثور . ثم تليها مدينة تماسيح تعظم هذا الحيوان . وتليها مدينة أفروديتى [3] وبعدها مدينة لاطوبوليس [4] التى تعظم أثينا واللاطوس ثم مدينة أيليثويا [5] ومعبدها . وفى الجانب الآخر من النهر توجد مدينة هيراكونبوليس [6] (مدينة الصقور) التى تعظم الصقر ، ثم مدينة أبوللونوبوليس [7] (مدينة أبوللو) وهذه أيضاً تشن الحرب على التماسيح .

---

(١) يسميهن ديودور الصقلى ١ ، ٤٧ « خليلات زيوس » .
(٢) ارمنت .
(٣) الجبلين .
(٤) إسنا .
(٥) مدينة الكاب ، وأيليثويا فى الأساطير اليونانية إلهة الوضع .
(٦) الكوم الأحمر .
(٧) إدفو .

٤٨ — أما عن سينى وإلفنتينى فالأولى مدينة تقع على حدود مصر وإيثيوبية ، والثانية جزيرة فى النيل فى مواجهة سينى على بعد نصف ستاد وفيها مدينة بها معبد كنوفيس [١] ومقياس للنيل مثل ممفيس . ومقياس النيل بئر على شاطىء النهر مبنية من حجارة متراصة مؤشر عليها أقصى ارتفاع النهر وأدناه ومتوسطه . ذلك أن الماء فى البئر يرتفع وينخفض مع النهر ، وعلى ذلك فتوجد على جدار البئر علامات هى مقاييس لأقصى الارتفاعات ولسائر الدرجات . وعندما ينظر المشرفون فى العلامات ينقلون النتيجة لسائر القوم لإعلامهم . إذ أنهم يستنتجون من هذه العلامات ومن حساب الأيام الارتفاع القادم قبل ميعاده بكثير ويعلنونه . وهذا مفيد للزرّاع بالنظر إلى توزيع المياه والجسور والقنوات وسائر ما شاكل ذلك ، ومفيد أيضاً للحكام فى ربط الخراج لأن الارتفاع الأكبر يعنى دخلا أكبر .

وتوجد فى سينى البئر التى تشير إلى الإنقلاب الصيفى . ذلك أن هذه المناطق تقع تحت الدائرة المدارية وتجعل المؤشرات غير ذات ظل فى الظهر، لأننا إذا تقدمنا من منطقتنا ـ أعنى المنطقة اليونانية ـ نحو الجنوب ، فإن الشمس تكون هناك أولاً عمودية لرؤسنا ، وتجعل المؤشرات غير ذات ظل فى الظهر ، إذ أنه عندما

---

(١) خنوم .

تكون الشمس عمودية على رؤوسنا فإنها بالضرورة تلقى أشعتها على الماء فى الآبار حتى ولو كانت شديدة الغور ، ذلك أننا نقف عمودياً وأجواف الآبار تحفر عمودية . وهناك ترابط ثلاث فرق رومانية كحامية .

٤٩ — وإلى الشمال بقليل من الفنتينى يوجد الشلال الصغير حيث يعرض أصحاب المراكب على الحكام نوعاً من الألعاب . والشلال فى منتصف النهر ، وهو كحاجب صخرى أعلاه مسطح حتى إنه ليستقبل مياه النهر وينتهى بمسقط تهوى عليه المياة ، وعلى جانبيه من ناحية الشاطىء يوجد مجرى من الممكن دائماً الإبحار فى النهر فيه حتى تصعيداً ، وعلى ذلك فإن الملاحين يصعدون فى النهر عن طريق هذا المجرى ، ثم ينكفئون نحو الشـــلال فيجرفون هم ومراكبهم من فوق المسقط وينجون ومراكبهم دون أذى . وعلى مسافة قصيرة شمالى الشلال تقع فيلاى (١) وهى موطن مشترك بين الإيثيوبيين والمصريين، وهى مبنية مثل الفنتينى ومساوية لها فى الحجم وتضم معابد مصرية . وهنا أيضاً يعظم طائر يسمونه الصقر بدا لى أنه لا يشبه فى شىء الصقور عندنا أو فى مصر ، بل هو أكبر منها حجماً وشديد الإختلاف عنها فى تعدد لون ريشه . وقالوا إنه طائر إيثيوبى وإنه يؤتى بغيره من هناك كلما مات سلفه

(١) بلاق ، جزيرة أنس الوجود .

أو قبل ذلك . والحق أن الطائر الذى عرض علينا حينئذٍ كان على وشك الموت بسبب المرض .

٥٠ — وذهبنا من سينى إلى فيلاى فى عربة فى سهل منبسط جداً، وهى مسافة تبلغ كلها نحو مائة ستاد . وكان يُرى على طول الطريق على الجانبين فى أماكن كثيرة صخور[١] مثل تماثيل هرمس[٢] ضخمة مستديرة مالسة جداً . تكاد تكون دائرية الشكل من الحجر الأسود الصلد الذى يتخذ منه الملاط . وهى مستقرة على صخور أكبر منها وعلى هذه صخور أخرى وأحياناً تكون هذه الصخور قائمة بنفسها . وكان قطر أكبرها لا يقل عن ١٢ قدما ، وكلها أكبر من نصف هذا الحجم . وعبرنا إلى الجزيرة فى پاكتون ، والباكتون قارب مصنوع من الصفصاف حتى ليشبه الشىء المجدول . وسواء كنا وقوفاً فى الماء أو جلوساً على بعض الألواح الصغيرة ، فقد عبرنا بسهولة فى خوف لا مبرر له ، إذ لا خطورة فى الأمر إلا إذا جعل أحدهم القارب زائد الحمولة .

٥١ — والنخيل فى مصر كلها من نوع ردىء ، وهو لا يثمر ثماراً طيبة تؤكل فيما حول الدلتا والاسكندرية ، أما النخيل فى إقليم طيبة فأفضله كله . ومما هو جدير بالعجب، أن بقاعاً فى نفس

(١) يعنى الجنادل .
(٢) تمثال لهرمس فوق قاعدة مربعة ، كان يستعمله اليونان للفصل بين الحدود المختلفة .

خط عرض اليهودية وتتاخمها ، أعنى البقاع التى حول الدلتا والاسكندرية، تكون مختلفة إلى هذا الحد . فاليهودية تنتج علاوة على سائر أنواع النخيل، النخيل الكاريوتى أيضاً ، وهو أحسن إلى حدٍّ ما من البابلى . وهناك نوعان فى إقليم طيبة كما فى اليهودية ، النوع الآخر والكاريوتى ، والنوع الطيبى أصلب ولكنه ألذ طعماً ، وهناك جزيرة أيضا تمتاز بإنتاج أحسن الأنواع، وهى تؤدى للحكام أكبر دخل، فقد كانت خاصة ملكية ولم يكن للأفراد فيها نصيب ، وهى الآن تابعة للحكام .

٥٢ — وإن هيرودوت وسائر الكتّاب ليعبثون كثيراً إذ يدخلون تواريخهم المغرب من القول كأنه شىء من اللحن أو النغم أو التوابل ، مثل الزعم بأن منابع النيل بالقرب من الجزائر القريبة من سينى والفنتينى وأنها كثيرة ، وأن مجراه فى هذه المنطقة ذو قاع لا يُسبر . فالنيل يضم جزائر كثيرة متفرقة ، بعضها يغمر كله فى الفيضانات ، والبعض الآخر يُغمر نصفه ، والأجزاء العالية جداً من هذه تُروى بالطنابير .

٥٣ — كانت مصر منذ البدء مسالمة على الأكثر ، وذلك لاكتفاء البلاد الذاتى، ولصعوبة التوغل فيها على القادمين من الخارج، إذ يحميها من الشمال شاطىء خال من الثغور والبحر المصرى ، ومن الشرق والغرب جبال جرداء — الليبية والعربية — كما سبق

القول ، أما باقى الجهات ، أى التى صوب الجنوب فيقطنهـــا التروجلوديتيون والبلّميون والنوبيون والميجاباريون وهم الأثيوبيون فيما وراء سينى ، وهؤلاء رحّل وليسوا كثيرين ولا حربيين ، وقد ظنهم القدماء حربيين لأنهم كثيراً ما هاجموا العزّل كاللصوص ، أما عن الاثيوبيين الذين ينتشرون صوب الجنوب وفى مروى ، فهم ليسوا كثيرين ولا متكتلين، لأنهم يسكنون رقعة طويلة ومتعرجة من وادى النهر كما أسلفنا الذكر ، وليس هؤلاء بحسنى الاستعداد لحياة الحرب ولا لغيرها من فنون الحياة .

والبلاد كلها فى الوقت الحاضر جانحة إلى السلم على حد سواء ، والدليل على ذلك أن الرومان يكفيهم فى خفرها ثلاث فرق ، وحتى هذه ليست كاملة ، وعندما تجرأ الإثيوبيون على مهاجمتها عرّضوا بلادهم للأخطار ، وباقى القوات التى فى مصر لا تكاد تبلغ هذا المبلغ ، ولم يستخدمها الرومان مجتمعة مرة واحدة ، وذلك لأنه لا المصريين أنفسهم محبين للحرب مع أنهم كثر ، ولا القبائل المجاورة . وقد هاجم كورنيليوس جاللوس — وهو أول من عين حاكما على البلاد من قبل قيصر — مدينه هيرونبوليس وكانت قد ثارت[1] وأخذها بنفر قليل ، وقمع فى زمن وجيز [2] ثورة قامت فى طيبة

---

(١) سنة ٢٩ ق . م .

(٢) حطم كورنيليوس جاللوس قوة الثوار فى خمسة عشر يوماً ، وأخضع بعدها إقليم طيبة كله .

بسبب الضرائب ، وفى زمن متأخر [1] صمد بترونيوس وليس معه إلا حرسه من الجند، عندما هاجمه جمع لا يحصى من السكندريين بوابل من الحجارة، وقتل بعضاً منهم وصد الباقين ، وقد ذكرت آنفاً [2] كيف أن أيليوس جاللوس عندما غزا بلاد العرب بجزء من الحامية المرابطة فى مصر ، أكتشف أن الناس بطبيعتهم غير محاربين ، والحق أنه لو لم يخنه سيلايوس لأخضع كل بلاد العرب السعيدة [3] .

٥٤ — وعند ما تجرأ الايثيوبيون لأن جزءاً من القوات المرابطة فى مصر قد سحبها ايليوس جاللوس معه فى حربه ضد الأعراب ، هاجموا إقليم طيبة والحامية المؤلفة من ثلاث فرق فى سينى، واستولوا بغتة على سينى والفنتينى وفيلاى بهجوم مفاجىء ، واسترقوا السكان، وهدموا تماثيل قيصر كذلك . ولكن بترونيوس خرج [4] بأقل من عشرة آلاف راجل وثمانمائة فارس ضد ثلاثين ألف مقاتل، واضطرهم أولاً إلى الهرب إلى بسلخيس، وهى مدينة

---

(١) ثار أهل الاسكندرية سنة ١٩ ق . م ولعل السبب كان ما قرره الوالى من ضم أوقاف المعابد إلى ميزانية الدولة .

(٢) ذكر (١٦ ، ٤) أن الحملة كانت مؤلفة من ١٠,٠٠٠ مقاتل منهم ألف من الأنباط تحت قيادة سيلايوس . وقد باءت الحملة بالاخفاق .

(٣) بلاد اليمن .

(٤) سنة ٢٤ ق . م .

أيثيوبية، وبعث إليهم بوفد يطلب منهم ما استولوا عليه، وليسألهم عن الأسباب التي بدأوا الحرب من أجلها. وعندما قالوا إنهم ظلموا على يد حكام الأقاليم، أجابهم بأن هؤلاء ليسوا حكام البلاد، وإنما قيصر حاكمها. ولما طالبوا بثلاثة أيام للتشاور ولم يعملوا شيئاً مما كان ينبغى عليهم عمله، هاجمهم واضطرهم إلى ملاقاته فى معركة، وجعلهم يتراجعون بسرعة فقد كانوا سيئى التنظيم والتسلح، إذ كانوا يحملون دروعاً مستطيلة كبيرة من جلد الثيران غير المدبوغ، أما أسلحتهم فقد كان بعضهم يتخذ القسوس والبعض الآخر الحراب، والبعض الآخر السيوف. والآن، فإن بعضهم قد تدافع نحو المدينة، وفر البعض الآخر إلى الصحراء. ووجد آخرون ملجأ فى جزيرة قريبة، فقد خاضوا المجرى إذ لم تكن هناك تماسيح كثيرة لشدة التيار. وقد كان ضمن هؤلاء قوّاد الملكة كانداكه التى كانت تحكم الإيثيوبيين فى أيامى، وهى امرأة رَجلة وقد فقدت إحدى عينيها. أما هؤلاء فقد أخذهم كلهم أسرى بعد أن أبحر إليهم فى صنادل وسفن، وأرسلهم مباشرة إلى الإسكندرية، وهاجم بسلخيس أيضاً وأخذها، وبإضافة عدد الذين سقطوا فى الموقعة إلى عدد الأسرى، يتضح أن عدد الذين فروا كان ولا شك قليلا. وذهب من بسلخيس إلى پرميس وهى مدينة حصينة بعد أن عبر التلال التى طُمر فيها قمبيز عندما اجتاحته

عاصفة، ولما هجم عليها أخذ الحصن فى الهجمة الأولى . وبعد ذلك سار إلى نباتا [١] وهذه كانت مقر مُلك كانداكه [٢] وكان ابنها هناك وكانت هى نفسها مقيمة فى مكان قريب . وبالرغم من أنها أوفدت رسلاً بشأن الصداقة وتسليم الأسرى والتماثيل ، فقد هجم على نباتا وأخذها هى الأخرى ومحقها ، وقد كان ابنها قد فرّ . وبعد أن استرق أهلها قفل راجعاً بالغنيمة . وقد رأى أن المناطق فيما وراء ذلك يصعب اجتيازها ، ولكنه حصّن پرميس أحسن من قبل، وترك حامية ومؤناً تكفى أربعمائة رجل مدة عامين ، ورجع إلى الإسكندرية . أما الأسرى فقد باع بعضهم كجزء من الغنيمة ، وأرسل ألفاً إلى قيصر، وكان قد رجع حديثاً من كانتابريا ، ومات الآخرون من الأمراض . وفى هذه الأثناء هاجمت كانداكه الحامية بآلاف عديدة، ولكن بترونيوس أسرع لنجدتها ووصل إلى الحامية قبلها . ولما حصن الموقع بتحصينات عديدة جاءه السفراء، ولكنه أمرهم أن يتوجهوا إلى قيصر . ولما قالوا إنهم لا يعرفون من هو قيصر ولا أين عساهم أن يذهبوا ليلقونه ، أعطاهم حراساً فذهبوا

---

(١) جبل برقل .

(٢) جاء فى أعمال الرسل ٨ ، ٢٦ ــ ٢٧ « ثم إن ملاك الرب كلم فيلبس قائلا قم واذهب نحو الجنوب عن الطريق المنحدرة من أورشليم إلى غزة التى هى برية . فقام وذهب وإذا رجل حبشى خصى وزير لكنداكه ملكة الحبشة كان على جميع خزائنها ... »

إلى ساموس[1] فقد كان قيصر هناك ، وكان يزمع أن يسير من هناك إلى سوريا بعد أن أرسل طيبريوس إلى أرمينيا ، وبعد أن حصل الرسل على كل ما التمسوه ، تنازل لهم عن الجزية التى كان قد فرضها عليهم .

٥٥ — لقد ذكرت فيما تقدم الشيء الكثير عن الإثيوبيين ، حتى أن وصف بلادهم قد يُضم أيضاً إلى وصف مصر .

وعلى العموم فإن أطراف المعمورة التى تقع فى المنطقة القاسية غير المسكونة بسبب حرها أو بردها ، لا بد أن تكون فاسدة وأقل صلاحية من المنطقة المعتدلة ، وهذا ظاهر من حياة سكانها وافتقارهم إلى مقوّمات الحياة الانسانية . فهم فى الواقع يحيون حياة خشنة وهم فى الأعم عراة رحَّل . وماشيتهم ـ الضأن والماعز والبقر ـ ضئيلة الحجم ، وكلابهم ضامرة ولو أنها شكسة مقاتلة . ولعل صغر حجم السكان كان مصدر تَوَهُّم الناس للأقزام واختراعها ، لأن أحداً من أهل الثقة لم يقل إنه رآهم رأى العين .

٥٦ — ويعيش الاثيوبيون على الذرة والشعير ، ويستخرجون منها شراباً ، وهم يستعملون بدلاً من زيت الزيتون الزبد والدهن ، وليس عندهم من أشجار الفاكهة غير قليل من النخيل فى الحدائق

---

(١) لقد أمضى أغسطس قيصر شتاء عام ٢١ ـ ٢٠ ق . م فى ساموس .

الملكية . وبعضهم يتخذ الحشائش خبزاً ، وكذلك الأعشاب الرقيقة والبشنين وجذور البوص ، وهم يتعاطون اللحوم والدم واللبن والجبن . وهم يعظمون كآلهة ملوكهم الذين يُعتقلون فى الغالب فى بيوتهم .

ومروى هى أكبر مقر ملكى عندهم ، وهى مدينة بنفس إسم الجزيرة . ويقال إن الجزيرة كالدرع المستطيلة فى الشكل ، أما حجمها فقد قيل ، على سبيل المبالغة فيما نظن ، إنه حوالى ٣٠٠ ستاد طولاً و ١٠٠٠ ستاد عرضاً . وفى الجزيرة جبال شاهقة وأحراش كثيفة ويسكنها الرحَّل والصيادون والزراع . وبها مناجم النحاس والحديد والذهب وأنواع مختلفة من الأحجار الكريمة . (١)

وتُحدُّ الجزيرة من الناحية الليبية بكثبان رملية عظيمة ، ومن الناحية العربية بسلسلة متصلة من الصخور ، ومن عل من ناحية الجنوب بملتقى الأنهار - نهر الأستابوراس والاستابوس والأستاسوباس ، ومن ناحية الشمال بمجرى النيل التالى الذى يمتد إلى مصر فى انحناءاته التى ذكرتها آنفاً .

وتتخذ البيوت فى المدن من أعجاز النخل المشقوقة بعد ربطها

(١) قال ديودور الصقلى ١ ، ٣٣ . « وبالجزيرة مناجم ذهب وفضة وحديد ونحاس ، هذا إلى كميات وفيرة من خشب الآبنوس ، وشتى أنواع الأحجار الكريمة »

معاً ، أو من البنات ، وهم يستخرجون الملح كما يفعل الأعراب .
وينبت فيها بكثرة من النباتات النخيل واللبخ والابنوس والخرنوب ، وعندهم من الصيد الفيلة والأسود والنمور ، وهناك أيضاً الثعابين محاربة الفيلة وحيوانات مفترسة أخرى كثيرة ، فالحيوانات تفر من المناطق الأكثر حرارة وجفافاً ، إلى المناطق المائية المستنقعية .

٥٧ — وتقع فوق مروى بسيبو وهى بحيرة واسعة تضم جزيرة آهلة بالسكان على وجه مرضى . وحيث أن الليبيين يسكنون الجانب الغربى من النيل ، ويسكن الايثيوبيون الجانب المقابل ، فيحدث أن تكون السيطرة على الجزر وعلى ضفتى النهر مناوبة بينهم ، فالفريق منهما ينسحب ويخلى السبيل للفريق الآخر الذى يكون حينئذ أكثر غلبة .

والايثيوبيون يستعملون النشاب ذات الأربع أذرع الخشبية التى صقلتها النار ، وهم يسلحون أيضاً نساءهم ، وأكثرهن يتخذن حلقاً نحاسياً فى شفاتهن . وهم يلبسون جلود الماشية ، إذ لا صوف عندهم ، لأن أغنامهم لها وبر كوبر الماعز . وبعضهم عار ، والبعض الآخر يتمنطق بقطعة صغيرة من جلد الشاه أو من الوبر المجدول جدلاً حسناً .

وهم يعتقدون أن الإله هو ذلك الكائن الخالد الذى هو مبدأ

كل شيء ، وذلك الكائن الفاف ، وهو كائن لا يُسمى ولا يُعرف كنهه ، ولكنهم على الأغلب يعتقدون أن محسنيهم ونبلاءهم آلهة . ويرون أن الملوك من بين هؤلاء مخلِّصون عامون ، وحراس للناس كافة وأنهم متفردون كأنهم آلهة ، بالنسبة للذين نالوا منهم حسن الصنيع على وجه الخصوص .

ويعتبر البعض من يسكنون بالقرب من المنطقة الشديدة الحرارة كفاراً ، لأنهم فيما يقولون يكرهون الشمس ويلعنونها عندما يرونها طالعة ، باعتبار أنها تلوحهم وتشن الحرب عليهم ، ويهربون منها إلى المستنقعات .

ويقدس أهل مروى هرقل وبان وإيزيس بالإضافة إلى إله [1] بربرى آخر .

وهم يتطلبون البر بالقسم بالموتى ، ويعظمون هذا القسم أكثر من سائر الأشياء المقدسة كلها .

وينصِّبون ملوكا أولئك الذين يمتازون بالجمال أو بالبراعة فى تربية الماشية أو بالأيد أو بالثراء . ولقد كان للكهنة فى مروى المكانة العليا فى العصر القديم ، إذ كانوا يسيطرون حتى على الملك ، وأحياناً كانوا ينفذون إليه الرسول بأن يموت ، وينصبون ملكا

(١) يذكر ديودور الصقلى ٣ ، ٩ اسم زيوس بالاضافة إلى هذه الثلاثة.

غيره مكانه . وأخيراً كسر أحد الملوك هذا التقليد بأن سار مع رجال مسلحين إلى المعبد حيث يوجد الهيكل الذهبي ، وقتل كل الكهنة .

وهذه أيضاً عادة ايثيوبية : إذا ما أصيب الملك بعاهة فى جزء من أجزاء جسمه على أى نحو كان ، فان خاصته المقربين يستهدفون للعاهة نفسها حتى إنهم ليموتون معه ، ومن هنا كانت حراسة الملك أحسن ما تكون على أيديهم ، وإن هذا القدر ليكفى فى الحديث عن الايثيوبيين .

٥٨ — وينبغى أن أضيف إلى وصف مصر ذكر كل ما يعدّ مصرياً قحاً مثل البقل الذى يسمونه مصرياً والذى تتخـــذ منه الكئوس ، والبردى ذلك أنه لا يوجد إلا هنا وفى الهند فحسب ، أما اللبخ فيوجد هنا فقط وفى إيثيوبية ، وهى شجرة ضخمة لها ثمرة حلوة كبيرة ، والسيكامينوس (شجرة الجميز) وهى تخرج الثمرة المسماة سيكوموروس لأنها تشبه السيكوم (التين) ، ولكن لا قيمة لها من حيث المذاق . وينبت أيضاً الكورسيون وهو عُقبة، ويشبه الفلفل بعض الشيء ولكنه أكبر منه قليلا .

والأسماك فى النيل كثيرة مختلفة الأنواع ولها صفات أصيلة خاصة ، أما أشهرها فالقنومة والشبوط والقشر واللبيس والفرخ النيلى وحمار البحر والابرميس ويسمونه أيضاً الفاجروس ، وكذلك

القرموط والقمر والبلم والبورى وقنديل البحر والفوسا والبوس.

أما القواقع فمنها محار كبير يصدر عنه صوت مثل نقيق الضفادع.

أما الحيوانات الأصيلة فى البلاد فمنها بمصر النمس والثعبان وهو ذو طابع خاص بالمقارنة بالثعابين فى البلاد الأخرى. وهى نوعان أحدهما طوله شبر واحد وهذه أقتل لدغة، والآخر طوله باع تقريباً كما قال نيكاندروس[1] الذى ألّف كتاب «الترياق».

ومن الطير يوجد أبو منجل والصقر المصرى، وهو مستأنس بالنسبة لغيره فى البلاد الأخرى، شأنه فى ذلك شأن القط. وغراب الليل هنا من فصيلة خاصة لأنه عندنا يكون فى حجم النسر وله صوت أجش أما فى مصر فهو فى حجم الزاغ وله صوت مختلف.

أما أكثر الطيور استئناساً فأبو منجل وهو كاللقلق فى الشكل والحجم وهو فصيلتان من حيث اللون، إحداهما بلون اللقلق والثانية سوداء كلها. وكل مفترقات الطرق فى الاسكندرية غاصة بها، ومع أنها مفيدة فى بعض الوجوه، فهى ضارة من وجوه أخرى. فهى مفيدة لأنها تلتقط كل الحشرات والنفايات من حوانيت اللحم والخبز،

---

(١) شاعر من أهل كولوفون، عاش فى القرن الثانى قبل الميلاد. وقد وصلنا من شعرة قصيدتان تعليميتان هما «الترياق» تتناول لدعات الحيات السامة، وأنواع الترياق المختلفة، ويستشهد استرابون بالبيت ١٦٨ منها. والثانية «السموم» تدور حول السموم النباتية والمعدنية والحيوانية والترياق منها.

وضارة لأنها تأكل كل شيء وقذرة ، ومن الصعب ذودها عن الأشياء الطاهرة التي لا تقبل الدنس بحال من الأحوال .

٥٩ — إن ما قاله هيرودوت [١] من أن العادة المصرية أن يعجن الطين بالأيدى ، وأن يعجن العجين لعمل الخبز بالأقدام صحيح والكاكيس نوع خاص من الخبز يمسك المعدة . والخروع نوع من الثمر يزرع فى الحقول ويستخرج منه الزيت الذى يستعمل فى مصابيح كافة أهل البلاد تقريباً ، ويتخذه الفقراء والعمال من الرجال والنساء دهاناً . والكويكينا منسوجات مصرية من نبات ما ، تشبه المنسوجات المصنوعة من الأسل أو النخل . وتصنع الجعة بطريقة خاصة عندهم ، وهو شراب شائع بين شعوب كثيرة ولكن طريقة صنعه مختلفة عند كل منها .

ومن التقاليد التى يرعونها بوجه خاص عندهم أن يربوا كل ما يولد لهم من أطفال ، وأن يختنوا الذكور والإناث كما هى العادة عند اليهود ، وهؤلاء أيضاً مصريو الأصل كما ذكرت فى رواياتى عنهم .

ويقول أرسطوبولوس [٢] أنه بسبب التماسيح لا تعوم سمكة

(١) ٢ ، ٣٦ .

(٢) من أهل كساندرية وهو مؤرخ حياة الاسكندر ، وكان مرافقاً لجيشه ويظهر أنه أخرج كتابه قبل أن يستوى بطليموس الأول على عرش مصر ، وكان تاريخه عمدة استرابون فى كتابته عن الهند ، وكان أبرع فى التاريخ الطبيعى والجغرافيا منه فى وصف الفتوحات ، ولكنه كان على علم كبير بأحوال الاسكندر فلا بد أنه كان موضع سره .

واحدة من البحر إلى النيل إلا البورى والبلم والدخس (الدرفيل)، أما الدخس فلأنه أقوى من التمساح ، وأما البورى فلأن الخنازير تصاحبها على الشاطىء لتشابه ما فى طبائعهما ، والتماسيح تتجنب الخنازير لأنها مستديرة ولها فى رؤوسها فقار يكمن فيها الخطر على التماسيح . وهو يقول إن البورى تسبح مصعدة فى النهر فى الربيع حاملة بيضها ، ولكنها قبل غروب الدب الأكبر بقليل ، تعود أدراجها لتكوّن أسرابها حتى انها لتصاد فى أسرابها بالحواجز الشبكية (١) . ويمكن أن نتخيل سبباً مثل هذا فى أمر البلم أيضاً . ولنكتف بهذا القدر فى وصف مصر .

---

(١) جاء فى كتاب « مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة » تأليف إرمان ورانكه ، وترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال ، ص ٢٥٢ « كانت توجد فى جميع العصور الشبكة التى تسحب وهى توضع قائمة كالحائط فى الماء بالطريقة الحديثة نفسها المستعملة الآن » .

ملحق (١)

أسمــاء المدن

المدن المصرية التي وردت في الكتاب		اسم الموقع الآن
أپوللو	٤٥	قوص
أپوللو نوپوليس	٤٧	إدفو
أبيس	١٤	زاوية أم الرخم بالقرب من مرسى مطروح
أبيدوس	٤٢ ، ٤٤	العرابة المدفونة بالقرب من البلينا
أثريبيس	٢٠	تل أتريب بالقرب من بنها
أرسنوى	٢٥	السويس
أرسنوى	٣٨	مدينة الفيوم
اسكندرية	٦ ، ١٣	الإسكندرية
أفروديتو پوليس	٣٥	أطفيح
أفروديتو پوليس	٤٧	الجبلين
أفروديتو پوليس	٢٠	فى المقاطعة البروسوبية فى الدلتا
أكانثوس	٣٥	بالقرب من ممفيس
إليوسيس	١٦	بالقرب من النزهة
أمونيا	١٤	مرسى مطروح
أنتيفراى	١٤	البحرين
أوكسيرنخوس	٤٠	البهنسا

المدن المصرية التي وردت في الكتاب		اسم الموقع الآن
أيليثويا	٤٧	الكاب بالقرب من المحاميد
بابيلون	٣٠	مصر القديمة
پارايتونيوم	١٤	مرسى مطروح
پانوبوليس	٤١	أخميم
پرسيوس	١٨	شرقي المصب البولبيتي
پرمنيس	٥٤	قصر إبريم
بسلخيس	٥٤	الدكة
بطوليمايس	٤٢	المنشاه
بلينثيني	١٤	على بعد ستة كيلومترات شمال شرقي سيدى كرير
بنيجيوس	١٤	مطعن القط بالقرب من رأس الغرقان
بوسيريس	١٩	أبو صير بانا جنوبي سمنود
بوطوس	١٨	كوم الفراعين بالقرب من إبطو
بيرينيقة	٥	مدينة الهراس على شاطىء البحر الأحمر
بيلوزيوم	٤ ، ٢١	تل الفرما جنوب شرقي پور سعيد
تانيس	٢٠	صان الحجر
تانيس	٤١	قد تكون تونة الجبل غربي الأشمونين
تابوسيريس	١٤	أبو صير جنوب غربي الاسكندرية
تماسيح	٤٧	شمالي أرمنت
تنتيره	٤٤	دندرة

المدن المصرية التى وردت فى الكتاب		اسم الموقع الآن
ثونيس	١٦	كانت على رأس الفرع الكانوبى
جينايكو پوليس	٢٢	كوم فيرين بالقرب من الدلنجات
خابرياس	٢٢	قرية فى الجزء الشمالى الغربى من الدلتا
خيرونيسوس	١٤	مرابيط
دلتا	٤	قد تكون الوراق
ديوسپوليس	٤٦	الأقصر
ديوسپوليس (الصغرى)	٤٤	هيو
ديوسپوليس	١٩	البلامون
راقوتيس	٦	الاسكندرية
زيفيريوم	١٤	الضبعة
سايس	١٨ ، ٢٣	صا الحجر
سبينيتوس	١٨	سمنود
سخيديا	١٦	قد تكون كوم النشو شرقى كفر الدوار
سينى	٤٨	أسوان
طرويا	٣٤	طره
طيبة	٤٦	الأقصر
فاجروريو پوليس	٢٦	قد تكون فى وادى الطميلات
فاقوسة	٢٦	صفط الحنة
فيلاى	٤٩	جزيرة فيلاى
فيلون	٢٦	قرية مجاورة لفاقوسة

المدن المصرية التي وردت في الكتاب		اسم الموقع الآن
كانا باعوس	١٤	السلوم
كانوپوس	٤ ، ١٧	كوم سمعدى جنوب أبى قير
كركيسورا	٣٠	قد تكون هى الوراق
كروكوديلو پوليس	٤ ، ٥	مدينة الفيوم
كسويس	١٩	سخا
كوبتوس	٤٤ ، ٤٥	قفط
كينوسپوليس	١٩	أبو صير بانا
لاتوپوليس	٤٧	إسنا
ليكوپوليس	١٩	مدينة فى الدلتا
ليكوپوليس	٤١	أسيوط
ليونتوپوليس	١٩	كوم المقدام جنوب شرقى ميت غمر
مروى	٢، ٥، ٥٦	بكراويجا
ممفيس	٣١ — ٣٣	ميت رهينة
موممفيس	٢٢ ، ٢٣	كوم أبو بيلو
منديس	١٩	تل الربع جنوب شرقى المنصورة
مينيلاوس	٢٣	فى وادى النطرون
ميوس هورموس	٤٥	أبو شعر القبلى
نوقراطيس	٢٣	كوم جيف بالقرب من نقراش
نيكوپوليس	١٠ ، ١٦	رمل الاسكندرية
نيكيوم	١٤	قرية بين بلينثينى والاسكندرية

المدن المصرية التي وردت في الكتاب		اسم الموقع الآن
هرموپوليس	١٨	مدينة فى جزيرة بالقرب من بوطوس
هرموپوليس	١٩	مدينة فى الأقليم السبينيتى
هرموپوليس	٢٢	دمنهور
هرمونثيس	٤٧	أرمنت
هليو پوليس	٢٧-٢٩	المطرية
هيرا قليوپوليس	٣٩	أهناسيا المدينة بالقرب من بنى سويف
هيراقليوم	١٨	الطابية الحمراء (الكوم الأحمر)
هيرا كونپوليس	٤٧	الكوم الأحمر شمال غربى إدفو
هيروپوليس	٢٦	تل المسخوطة

ملحق (٢)

أسمـــاء الآلهـة

أسماء الآلهة الواردة فى الكتاب		ما يقابلها فى المصرية القديمة
أپوللو	٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧	حورس
أثينا	١٨ ، ٤٧	نيث أو شو أو تفنت
أفروديتى	٤٢ ، ٤٣	هاتور
أنوبيس	٢٨	انپو
أوزيريس	٢٣ ، ٤٤	أوزيريس
إيزيس	٢٣ ، ٤٤ ، ٥٧	إيزيس
أيليثويا	٤٧	نخبت
پان	١٩ ، ٥٧	مين
زيوس	٤٦ ، ٤٧	آمون ـ رع
سارابيس	١٧ ، ٢٣	سيرابيس
سيلينى (القمر)	٣١	إيزيس
طيفون	٢٣	ست
ليطو	١٨	أوتو
هرقل	١٨،٢٩،٤٣،٥٧	خونسو
هرمس	٤٦ ، ٥٠	تحوت
هيفايستوس	٣١	بتاح
هيليوس (الشمس)	٢٧	رع أو آتوم

ملحق (٣)

الحيوان المقدس

الحيوان المقدس		الإله الذى يتعلق به
إبن آوى	٤٠	أبوات
آبيس (عجل)	٢٢ ، ٢٧ ، ٣١	بتاح
أسد	٤٠	شو
أنوبيس	٢٨ ، ٤٠	أنوبيس
إيبيس	٤٠	تحوت
بقرة	٢٢	هاتور ، نفتيس
تمساح	٣٨ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٧	سبك
تيس	١٩	آمون ، أو زيريس
ذئب	٩ ، ١٩ ، ٤٠	أبوات
شبوط	٤٠	أونوريس
صقر	٤٠	حورس
ضأن (كبش)	٤٠	خنوم
فأر برى	٤٠	أوتو
قرد	٤٠	تحوت
قشر	٤٠	نيت

الحيوان المقدس	الإله الذى يتعلق به
قط ٤٠	باست
قنومة ٤٠	ست
كلب ١٤ ، ٤٠	ست
لبوءة ١٩ ، ٤٠	سخمت
معزى ٤٠	أوزيريس
منيفيس (عجل) ٢٧	رع
نسر ٤٠	موت
نمس ٣٨	أوتو

لحق (٤)

المقاييس

ذراع [1] = ١ $\frac{1}{3}$ قدم = ٠,٤٦٣٢ من المتر .

باع = ٦ أقدام = ١,٨٥٣ متراً .

بليثرون = ١٠٠ قدم = ٣٠,٨٨ مترا .

ستاد = ٦٠٠ قدم = ١٨٥,٣ متراً .

سخينوس = ٦٠ ستاد = ١١,١٢ كيلو متراً .

رحلة يوم براً = ١٥٠ ستاد = ٢٨ كيلو متر تقريباً .

« « بحراً = ٧٠٠ ستاد = ١٣٠ « « «

« لية بحراً = ٦٠٠ ستاد = ١١١ « « «

النقد

المن = ١٠٠ دراخمة

طالنط = ٦٠ مناً = ٢٤٠ جنيهاً تقريباً .

وهذه كانت تستعمل بهذه النسب كموازين، والمن (وزن) = ١ $\frac{1}{3}$ رطلا وكان مستعملا كمكيال أيضاً .

---

(١) الذراع المصرية تساوى ٠ر٥٢٥ من المتر ، وهذه هى الذراع التى كان يستعملها المصريون فى مساحة الأرض وقياس ارتفاع النيل .

فهرس

قرية فيلو . وعرض القناة مائة ذراع وعمقها كاف لتعويم مركب ذات حمولة كبرى . وهذه البقاع قريبة من رأس الدلتا .

٢٧ — وهنا توجد مدينة بوباسطوس وإقليم بوباسطوس، ويقع فيما يليه إقليم هليوپوليس وفيه توجد مدينة هليوپوليس قائمة على تل كبير بها معبد هيليوس (الشمس) ، والثور منيفيس محفوظ فى مقصورة ما ، وهو يعد عندهم إله شأنه شأن أبيس فى منفيس . وتقع أمام التل بحيرات تستقبل المياه الفائضة من القناة المجاورة . والمدينة الآن مهجورة تماماً وهى تضم المعبد القديم المبنى على الطراز المصرى وهو يقوم دليلاً على جنون قمبيز [٢] وانتهاكه لحرمة المعابد وهو الذى جعل يدنس المعابد تارة بالنار وتارة بالحديد مخرباً ومحرقاً كما كان فعله فى المسلات . وقد نقلت من المسلات اثنتان إلى روما ، وهما اللتان لم تشوها تماماً ، أما المسلات الأخرى فهناك أو فى طيبة وهى ديوسبوليس الآن . وبعضها لا يزال قائماً وقد أكلتها النيران ، أما البعض الآخر فملقى على الأرض .

وتصميم بناء المعابد كما يأتى : عند المدخل المؤدى إلى الحرم يوجد فناء مرصوف بالحجارة عرضه حوالى مائة قدم أو أقل،

---

(١) تل بسطة بالقرب من الزقازيق .

(٢) غزا قمبيز مصر سنة ٥٢٥ ق . م

وطوله ثلاثة أو أربعة أضعاف ذلك وأحياناً أكثر . وهذا يسمى المجرى كما قال كاليماخوس (١) :

« هذا هو مجرى أنوبيس المقدس »

وعلى طول هذا المجرى كله تقوم تماثيل حجرية على كلا الجانبين لأبي الهول الواحد بعد الآخر ، ويبعد الواحد منها عن الآخر بمقدار عشرين قدماً أو أكثر قليلاً ، حتى أنه ليتكون من تماثيل أبي الهول بوابة خارجية كبيرة ، ثم بوابة أخرى إذا تقدم المرء ثم أخرى . وليس هناك عدد معين لا من البوابات الخارجية ولا من تماثيل أبي الهول ، بل تختلف باختلاف المعابد كما هو الحال في أطوال وعروض المجارى . ويلى البوابة الخارجية الناووس وله ناووس خارجي ضخم كبير ، ثم يأتى المحراب وهو متوسط الحجم وليس به تمثال إله ، أو بالأحرى ليس به تمثال على شكل إنسان ، وإنما فيه تمثال لأحد الحيوانات العجماوات ، وعلى جانبى الناووس الخارجى يبرز ما يسمى بالجناحين ، وهما عبارة عن حائطين مساويين للناووس فى الارتفاع ويبعد الواحد منهما عن الآخر فى البداية بمقدار يزيد قليلا عن عرض أساس

---

(١) شاعر مفلق ولد فى قورينة سنة ٣٠٥ ق . م ، وارتحل إلى الاسكندرية واشتغل بها معلماً فى ضاحية إليوسيس ، وعمل فى مكتبة الاسكندرية فى عصر بطليموس الثانى ، وأخرج أول كتاب فى تاريخ الأدب على نسق علمى .